منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (2178) السنة الثامنة - السبت (2) تمـوز 2011

أمين معلوف

أمين معلوف

أمين معلوف أديب وصحافي لبناني ولد في بيروت في ٢٥ فبراير/شباط ١٩٤٩ م، امتهن الصحافة بعد تخرجه فعمل في الملحق الاقتصادي لجريدة النهار البيروتية.
في عام ١٩٧٦ م انتقل إلى فرنسا حيث عمل في مجلة إيكونوميا الاقتصادية، واستمر في عمله الصحفي فرأس تحرير مجلة "إفريقيا الفتاة" أو "جين أفريك"، وكذلك استمر في العمل مع جريدة النهار اللبنانية وفي ربيبتها المسماة النهار العربي والدولي.
أصدر أول أعماله الحروب الصليبية كما رآها العرب عام ١٩٨٣م عن دار النشر لاتيس التي صارت دار النشر المتخصصة في أعماله. ترجمت أعماله إلى لغات عديدة ونال جوائز أدبية فرنسية عدة منها جائزة الصداقة الفرنسية العربية عام ١٩٨٦م عن روايته ليون الإفريقي، وحاز على جائزة الجونكور، كبرى الجوائز الأدبية الفرنسية، عام ١٩٩٣ عن روايته صخرة طانيوس. قام د. عفيف دمشقية بترجمة جل أعماله إلى العربية وهي منشورة عن دار الفارابي ببيروت. تميز مشروع أمين معلوف الإبداعي بتعمقه في التاريخ من خلال ملامستها أهم التحولات الحضارية التي رسمت صورة الغرب والشرق على شاكلتها الحالية.

أعمالـــه

الحروب الصليبية كما رآها العرب - عرض تاريخي (١٩٨٣)
ليون الأفريقي - رواية (١٩٨٤)
سمرقند - رواية (١٩٨٦)
حدائق النور - رواية (١٩٩١)
القرن الأول بعد بياتريس - رواية (١٩٩٢)
صخرة طانيوس - رواية (١٩٩٣)
سلالم الشرق أو موانئ المشرق - رواية (١٩٩٦)
رحلة بالداسار - رواية (٢٠٠٠)
الحب عن بعد - مسرحية شعرية (٢٠٠١)
الهويات القاتلة - مقالات سياسية (١٩٩٨ و ٢٠٠٢)
بدايات - سيرة عائلية (٢٠٠٤)
الأم أدريانا - مسرحية شعرية (٢٠٠٦)
خلل العالم - مقالات سياسية (٢٠٠٩)

الانتماءات المتعددة عند أمين معلوف

سليل أسرة عريقة تتعايش فيها حساسيات دينية شتى، تاركا بلده الأصلي لبنان عام ١٩٧٦ أثناء الحرب الأهلية، مرغمًا على إعادة بناء حياته كلها في بلد أجنبي، يسكنه حنين البيوت المفقودة، لا يفتأ أمين معلوف يتساءل في أعماله عن مسيرته الخاصة وعن تعدد الانتماءات التي اختصته بها الحياة. ما يدهش، عندما نقرأ نصوصه، سواء رواياته أم مقابلاته أم مقالاته، هو الشعور الذي لدى شخصياته بأنهم منذ أمد بعيد، وبالنظر حتى إلى أصولهم «Origines»، وهو عنوان أحد أعماله الأخيرة، بأنهم أقليات متموضعة على ملتقى تقاليد شتى، خاضعين لصروف الحياة، معرّضين للرحيل في كل حين وللتخلي كرهًا عن كل شيء من أجل الإقامة في مكان آخر من الغربة. ويعبّر عن هذه الهشاشة بالدوافع المتكررة للسفر، للمنفى، للطارئ الذي غالبًا ما يؤثر في المسارات الفردية ويؤدي بها إلى الالتقاء بالآخر بمختلف الأشكال.

إيڤلين آرغو
ترجمة: محمد علي عبد الجليل

تقليدَ الانفتاح هذا فيتزوج بدوره من شابة يهودية؛ ويقيم الزوجان تارةً في حيفا وطورًا في بيروت، فتكون تنقلاتهما جيئة وذهابًا رمزًا وتجسيدًا لذلك العبور من ثقافة إلى أخرى ومن عالم إلى آخر (سالم المشرق).

سحر الأصول:

هذه الروابط التي تقام بسهولة مع الآخر، مع الغريب، يجب بحثها في الأصول الفردية لا في "الجذور". وينضم معلوف إلى إدوار غليسان الذي يذكر "تعصب الجذور المقدس" فيقول:
لا أحب كلمة "جذور"، وكذلك لا أحب صورتها. فالجذور تنغرس في التربة، تلتوي في الطين، تتفتح في الظلمات؛ فتُبقي الشجرة أسيرةً منذ الولادة، وتغذيها مقابل الابتزاز والتخويف: "إذا تحرّرْت تموتين!
الجذر يعبق ويقيد، في حين أن الأصل، بالرغم من أنه محدَّد، لا يحجّر الفردَ في تقليد مغلق وفي حتمية ضيقة وجامدة. وفي بداية هذه المسارات الفردية غالبًا ما نجد المنفى والتيه. إنها أحداث مأساوية تلك التي أجبرت عائلة راوي سالم المشرق على اختيار المنفى قبل مولد الراوي. أما بلداسار فهو، بدوره، متحدر من أسرة من جنوى قادتها تقلباتُ التاريخ إلى الإقامة في الشرق.

الهشاشة والانفتاح على الآخر:

تكثر في روايات أمين معلوف كثيرًا اللقاءاتُ المفاجئة والصداقات المدهشة وحالات الحب المستحيلة والعلاقاتُ التي تتجاوز العداوات الدينية والسياسية والثقافية. ولا تعدمُ في نتاجه الأمثلة التي تثبت إمكانية التغلب على الشقاقات القوية: مسيحي تربطه صداقة قوية مع يهودي، تاجر من جنوى يصبح صديقًا لتاجر من البندقية، تاجر مسيحي على علاقات ممتازة مع تجار آخرين مسلمين أو يهود (رحلة بلداسار). أمّ مسلمة تقيم علاقة صداقة ودية مع مطبّبة يهودية؛ مسلم مولود في غرناطة قبل غزوها بقليل يعيش ردحًا من الزمن مع امرأة من سرقاسيا التي أحلامُها تخالف أحلامه، ومن ثم يتزوج من يهودية من غرناطة تنتصر تحت وطأة الأحداث (ليون الأفريقي). تركي عثماني يتزوج من ابنة أفضل صديق له، أرمني، ويتقاسم الاثنان المصيرَ نفسه في المنفى عقب اعتداءات عام ١٩٠٩ التركية على الأرمن. ويتابع ابنه التركي المسلم وينتسب ليون الأفريقي، الشخصية التاريخية، إلى عائلة من المسلمين الذين أقاموا في غرناطة وأجبروا على الهجرة أثناء الغزو الذي قام به الملوك الكاثوليك. في هذه القصة التي كُتبتْ بضمير المتكلم، على غرار روايات أمين معلوف، تميز الهشاشة، التي يسببها المنفى الإجباري كمصير مفروض غير مختار، أصول الراوي، الذي ينحدر منها مطالبًا بحق ألا يكون من أي وطن، أنْ يكون "ابن السبيل" إن صح التعبير، على غرار أمين معلوف نفسه، كما يذكر في الكتاب الذي كرسه لأجداده ومسيراتهم:
بالنسبة لنا، الطُرُق وحدها تهمّ. (...) إنها واعدة لنا، تنقلنا، تدفعنا ثم تتركنا. عندها نموت، كما وُلدنا، على حافة طريق لم يكن لنا بها خيار.

الأقليات والمسافرون:

ليس مدهشًا، إذن، أن تكون هذه الشخصياتُ في الوقت نفسه "إقليات" ومسافرين؛ هم أقليات لأنهم، كمنفيّين، يظلون دائمًا، على الرغم من الاندماج الاجتماعي الناجح، غرباءَ متأهبين للرحيل: يقيم بلداسار القادم من جنوى منذ ولادته في الشرق ونجح في الاندماج فيه، إذ اختلط بالمسيحيين واليهود أيضًا. لم يكن أقلّ استعدادًا لترك الأسرة والأعمال والبيت ليلقي بنفسه في طرقات ستقوده من الشرق إلى أوروبا في مغامرة هو نفسُه يصفها مرارًا بالملامعقولة.
تبيّنُ جميعُ هذه الشخصيات، كل شخصية على طريقتها، ما قاله أمين معلوف عن نفسه مرارًا:
الجرح الداخلي (...) مرتبط أولا بهذا الشعور المكتسب منذ الطفولة بأن أكون من الأقليات بشكل ميئوس منه وبأن أكون غريبًا بلا أمل حيثما أكون.
الأقليات هي أيضا كائنات مسافرة، كائنات عابرة سبيل، مثل ليون الأفريقي "مسافر، مخلوق مهاجر"، مقدّر لهم أن يجتازوا حدودًا وأن يهرّبوا أفرادًا عبر الحدود، حاملون بالتأكيد بالتخلص من كل عائق: إذْ يهتف أمين معلوف:
ليتكم تعلمون ما أحس به من سعادة في اجتياز الحدود دون أن يوقفني أحد...؛ يُعبرون من عالم ثقافي إلى آخر، بطريقة غالبًا ما تكون مفاجئة إلى أبعد حد، وكأن القدَرَ يتلاعب بتوقعات البشر ومخططاتهم وأمانيّهم. ففي حياة ملؤها الاغتراباتُ المتتالية والتغيرات المفاجئة غالبًا ما ينحرف الفردُ كما تشاء الظروف، لقاءات طارئة وتغيرات مناخية سيئة وأحداث تاريخية، إنها حياة لا ضمانَ لشيء فيها، لا شيءَ ثابت، لا البيوت ولا الأسماء ولا الهويات حتى. كان تبدُّل الانتماءات وهشاشتها من نصيب هذه الشخصيات، انتماءات موروثة أو مفروضة أو مخفيّة أو متعاقبة أو متزامنة، عابرة أو إرادية أو محتومة؛ ولا تُنسَب أية شخصية إلى مكان ولا إلى هوية.
يتناول معلوف هنا موضوع البداوة الشائع لدى العديد من كُتّاب المنفى الذين لا يعترفون لأنفسهم على الأغلب بأرض حقيقية سوى في الكتابة.

الانتماءات المتعددة:

في حين إذا كانت هذه اللااستقراريةُ وتلك الهشاشةُ التي تجعل منهم كائنات تتموضع على مفترق الأماكن غيرَ متأكدين أبدًا من بقائهم في المكان نفسه، إذا كانت نتيجة لمآسيَ غير متوقعة، فإنها لا تبدو مشؤومة النتائج قطعيًا ربما: ها هو بلداسار، المطرود بفظاظة من قبرص، والذي اقتيد موثوقًا وملجومًا في عمق مركب، منفصلا عن ذويه بين عشية وضحاها، يجد موطنه الأصلي البعيد، موطنَ أجداده وعائلة بالتبني وزوجة شابةً أيضًا. ليون الأفريقي الذي اختطفه قراصنة يصبح في روما علامة يعامَل بإجلال كبير قبل أن يصل إلى تونس. إن اضطرابات الحياة التي يمكن أن تؤدي إلى خسارة كل شيء ليست سلبية تمامًا؛ وكمنعطفات حاسمة تنفتح على حياة جديدة، مختلفة طبعًا، لكنها ليست بالضرورة أسوأ من الحياة السابقة مهما كانت قليلةً معرفتُنا كيف نتأقلم ونقبل ما يحصل.
ويحافظ، مهما كان صعبًا، هذا القبول بالطارئ على مرونة كبيرة لدى العديد من هذه الشخصيات والتي يغيّر بعضها اسمه عدة مرات خلال حياته: بينما كان يُدعى "الأفريقي" في روما، أصبح ليون الأفريقي يدعى بـ "الرومي" في تونس، وهو اسم يطلق على المسيحيين؛ ويَرمز اسم "ليون الأفريقي" نفسه إلى تلاقي قارات مختلفة، أوربا وأفريقيا، وتمازج ثقافات متباعدة تتواصل في الفرد نفسه وتتصارع أحيانًا.
كما يعبّر عن هذه المقدرة في إمكانية أن يعيش المرءُ هُويات مختلفة بـ "اللباس": لا يتردد حسن، وهو اسم آخر لـ "ليون الأفريقي"، الشخصية-الراوي، في أن يلبس كسكان القاهرة عندما يسكن في القاهرة، ثم يلبس الزي التونسي عندما يكون في تونس؛ تستهويه "كوسموبوليتانية" القاهرة وتعايُش الطوائف المتعددة، وتبقيه في هذه المدينة حيث يعطيه أحد المسيحيين الأقباط منزله. ويروق للراوي، على ما يبدو، أن يشير حتى إلى هذا الاختلاط في الإشارات الثقافية وإلى ذلك التشابه الذي يجعل من المستحيل اختزال شخص بهوية ما، والذي يخيّب النظرات الفضولية ويمنع كلَّ تأطير من شأنه الاختزال.
كيف يمكن، في الواقع، النظر إلى مغربي يلبس الزي المصري ومتزوج من امرأة سرقاسية أرملة أمير عثماني ويزيّن منزلَه على طريقة رجل مسيحي! (ليون الأفريقي، ص ٣٥١). وكالثياب تتعدد اللغات: ينخرط ليون الأفريقي بحماس في مشروع معجمي يهدف رمزيةَ برج بابل (...) حيث تظهر كل كلمة في عدد كبير من اللغات. (المرجع نفسه، ص ٤٣٤).
إن تعددية الأسماء كتعددية اللغات المحكية هي هنا شاهد على هذه الاستحالة في ربط الشخصية بهوية واحدة، ثابتة ونهائية. بالإضافة إلى ذلك، إنه لَنبل عظيم أن يعرف المرء كيف يتجاوز الفوارق الثقافية. يتزوج مسلم من يهودية (سالم المشرق)، وكل منهما ينافس الآخر "بلباقة أدبية" ويحترمه ويدافع عن طائفته؛ يعرف كل واحد من هذين الزوجين الكريمين كيف يضع نفسه مكان الآخر. فمشهد الزواج الذي تصل فيه عائلتان، إحداهما يهودية والأخرى مسلمة، إلى التزاوج والتفاهم فيما بينهما هو شاهد على تفاؤل الكاتب في مقدرة الكائنات على الالتقاء بما يتجاوز الفوارق فيما بينهم.

الحق في الهويات المتعددة:

وهكذا، ومن دون أن يستبعد كل منها الآخر، تنضاف الانتماءات إلى بعضها وتتراكم وتترسب. هناك انتماءات كالنساء تقريبًا عند معلوف: لا يمكن نكران أية واحدة، إذ يمكن قبولهن جميعًا بمحبة، فلا الانفصال ولا البعد يلوث الذكرى أو يجعل شعاعها الحار يخبو. ويمكن للانتماءات المتعددة أن تتعايش داخل فردية واحدة، فترسم هذه المساكنَاتُ كائنات تعددية دون أن تتمزق أو تعجز عن ربط أجزاء الهوية التي تتركب منها.
علاوة على ذلك، من شأن الفرد، باستمرار الترحال، أن يحوّل نظرتَه وفي الوقت نفسه يغيّر منظوره. وليس عبثًا بالتأكيد أن تكون شخصيات معلوف من التجار والدبلوماسيين والأدباء والمثقفين ورجال التواصل واللباقة. فـ "معلوف"، كـ "فولتير" في عصره، يمجّد التجارة كنشاط للناس المنفتحين على جميع التبادلات الاقتصادية والثقافية والفكرية؛ إذ لكي يبيع المرءُ جيدًا يجب عليه أن يعرف كيف يضع نفسه مكان زبونه، يحدد مزاجه ويلتقط حاجاته ورغباته ويفهم نفسيته. فالتاجر كالدبلوماسي من شأنه أن يحتك بأناس من مختلف المشارب والدين لا يمكنهم أحيانًا أن يتفقوا مع بعضهم؛ فها هو ليون الأفريقي، الذي كان تاجرًا في البداية، يصبح دبلوماسيًا فيما بعد لدى العرب ولدى المسيحيين على السواء.
لم يُنظِّرْ في هذه الانتماءات المتعددة بمثالية بسيطة: فالمجازر وحالات الانفصال والآلام لم يتم إخفاؤها بل سُردتْ، وبكل فظاعاتها أحيانًا. مع ذلك، ليس مستحيلا أبدًا التغلب عليها، وإلى الفرد تعود الوقاية من حالات الجنون الجمعية؛ فالفردي، الذي هو مكان الفوارق الدقيقة، ينجح في ترسيخ ما يستبعده الجمعي، المختزل والمبسّط، ويمنعه؛ وتتيح اللقاءاتُ الصغيرة فتحَ أفق للصداقة والحوار رغم التمييزات الثقافية.

تحدٍّ جديد للفرد:

يظل معلوف مولعًا بقيم الغرب، ومنها الثقة بالفرد، المرتبط بالجماعة، وبـ "العشيرة"، ولكنه الحر والمفرد حتى وإن حصل له أنْ ندمَ على النزعة الفردية المفرطة أحيانًا للمجتمعات الغربية. فسواءً في رواياته أو في خواطره (الهويات القاتلة) أو في مقابلاته، يرفض ذلك الكاتبُ الذي يُقلقه تصاعدُ العنف الطائفي والذي لا يخشى من تقديم "رسالة" أو تلخيص "عبرة التاريخ"، عندما يذكر رواياته، يرفض الخلط بين الانتماء والانتساب الأعمى لتوكيد حق الفرد في مقاومة الضغوط الجمعية وفي أن يعيش مجمل هُوياته من دون تمزق:
أينما تكون، هناك بعض ممن يريدون نبشَ جلدك وصلواتك. حذار أن تمدحَ ميولهم، أيّ ولدي! حذار من أن تخضع للأكثرية؛ سواءً أكانوا مسلمين أو يهودًا أو مسيحيين، يجب عليهم أن يعاملوك كما أنت، وإلا تضع (...). لا تتردد أبدًا في أن ترحل إلى ما وراء جميع البحار، ما وراء جميع الحدود، ما وراء جميع الأوطان وجميع المعتقدات.

خطاب الهوية عند الروائي أمين معلوف

"لقد علَّمتْني حياةُ الكتابة أنّ أرتابَ من الكلمات، فأكثرها شفافيةً غالبًا ما يكونُ أكثرَها خيانةً.وإحدى هذه الكلمات المُضلِّلة هي كلمةُ هوية تحديدًا."×

د.علال سنقوقة

يعد أمين معلوف واحدًا من الأسماء الروائية المهمّة في الرواية العربية المعاصرة، ولكنّ وجهه الآخر المتمثل في القراءة الفكرية للواقع العربي، له من الأهمية ما يحتاج إلى دراسة مستفيضة، وهو ما يثيره كتابه المهم" الهويات القاتلة "١ الذي أثارني أكثر مما أثارتني أسئلة بعض الفلاسفة العرب المعاصرين.

ولد أمين معلوف في بيروت عام ١٩٤٩، ودرس الاقتصاد والعلوم الاجتماعية بالجامعة اليسوعية في بيروت، واحترف الصحافة بعد تخرّجه، فعمل في الملحق الاقتصادي لجريدة "النهار" اللبنانية، عمل أيضا محررا للشئون الدولية بالجريدة نفسها، وهو ما أتاح له الاطلاع على الكثير من التطورات السياسية والدبلوماسية في العالم.

وفي عام ١٩٧٦ ومع بداية الحرب الأهلية اللبنانية ترك معلوف لبنان وانتقل إلى فرنسا حيث عمل في مجلة "إيكونومية" الاقتصادية، واستمر في عمله الصحفي فترأس تحرير مجلة "إفريقيا الشابة" أو"جين أفريك".

ومنذ الثمانينيات، تفرّغ للأدب وأصدر روايته الأولى: "الحروب الصليبية كما رآها العرب" عام ١٩٨٣ عن دار النشر "لاتيس" التي صارت بعد ذلك دار النشر المتخصصة في أعماله. ترجمت أعماله إلى لغات عدة ونال جوائز أدبية فرنسية؛ منها جائزة الصداقة الفرنسية- العربية عام ١٩٨٦ عن روايته "ليون الإفريقي"، ورشح لجائزة "الجونكور" وهي أكبر الجوائز الأدبية الفرنسية. ومن أهمّ أعماله، بالإضافة لما ذكرنا يمكن الإشارة إلى أعماله التالية: "سمرقند" و"القرن الأول بعد بياتريس" و"حدائق النور" و"موانئ الشرق" و"صخرة طانيوس".

يصعب حصر روايات أمين معلوف في عالم معيّن ونصية معيّنة، فهي أعمال روائية بمقدار ما هي أعمال تاريخية، واستطاع الكاتب أن ينفتح من خلالها على الحضارات والثقافات والشعوب في ما يشبه الحوار الحقيقي الذي لا يلغي الخصوصيات والاختلافات والهويات الأصلية. وكان لا بدّ لهذه الروايات من أنّ تشهد رواجا عالميا لم يتطلب الكثير من الوقت، فهي تخاطب الإنسان، حيثما كان وتتوجّه إلى الذّاكرة والمخيّلة في وقت واحد.

لكنّ كتَابه الفكري التّحليلي "الهويات القاتلة" من الكتب النّفيسة، التي تبيّن جُرأة الكاتب على الخوض في الأفكار المطروحة في عالمه، بحيث لا يني يراجع كلّ الأفكار الموجودة في العالم العربي، وهي جرأة –لعمري– قليلة في العالم العربي اليوم بين المفكرين العرب.

ونريد في هذه المقالة، الوقوف على جُملة من الأفكار التي تميّزه، حيثُ نستطيع اعتباره من مفكّري التّجاوز لا التّقليد والإتباع، حيث لوحظ أنّه لا يسلّم بالأفكار المختلفة الرائجة في العالم وهي خصلة من النّادر الحصول عليها،ولعلّ أولى النّقاط الجديدة ما نجده من التفكيك السياسوي للأشياء والعمل على استغلال المعابر المتاحة للحوار العقلاني.

لا تردُّ الهوية لدى أمين معلوف مرادفة للثبات،بل هي هويّة متحوّلة، متحرّكة مع من التفكيك السياسوي للأشياء والعمل على لها،في حين تطرح الهويّة في الفكر الغربي والسلفي المتطرف في العالمين العربي والغربي بأنّها الثبات لا التّحوّل وهي مغالطة يكشف عنها أمين معلوف الدثار، بشيء من التّحليل الرّزين تعضده قوّة الفكر.

يقول في هذا السياق:"الهوية ليست ثابتةً بل هي تتحوّل مع الوقت وتحدث في السلوك البشري تغييرات عميقة،وإنْ وجدت،في كل الأوقات،تراتبيةً معينة بين العناصر المكونة لهوية كل إنسان "٢

وأهم القضايا التي ركز عليها معلوف في كتابه، سابق الذكر، يمكن أن نذكر:

– مسألة التكفير

– تجاهل الغرب لمشاكل العالم العربي والإسلامي

– الطائفية

– إشكالية التواصل اللغوي في العالم العربي

في المسألة الأولى، يرى أمين معلوف أنّ التّكفير ليس خاصًا بالعالم العربي بل إنّه صيغةٌ مرتبطةٌ بالدين بصورة عامّة، لكنّها ليستْ صورةً للدين بقدر ماهي صورة لتبنّي الدين في العالم العربي والإسلامي، يأتي التّكفير –بحسب رأي أمين معلوف –من الجهل بالآخر، والاعتقاد في كمال الذات وعدم الإيمان بالحوار بين الأنا والآخر، ويشكّل التّصور الأعمى للهوية واحدًا من أهمّ العوامل المسبّبة لهذا الانخراط في التكفير.

ولهذا يقترح أمين معلوف مراجعة صارمة لمفهوم الهوية، من هوية قاتلة إلى هوية متسامحة، متعالية على القيم الدوغماتية وهو المخرج لكل المآزق التي تعرفها الهويات المتقاتلة في العالم.

ويرى أنّ المسألة قديمةٌ لها تاريخها وسياقها في الخطاب الديني، سواء أكان ذلك في الإسلام أم في المسيحية أم في الديانات الأخرى المتبقية، ومن الصّعوبة هنا التفريق بين ما هو ديني وبين ماهو سياسي،لأنّ الخطاب يكاد يكون خطابًا ملتبسا ينصّر ويتخفّى أكثر من ظهوره على مستوى الدلالات التي يحملها وتوظّف بشكل جماهيري هستيري؛ تكون وراء معظم حالات القمع والموت التي يعيشها المجتمع المنتمية إليه، وفي هذا السّياق يقترح مراجعةً صارمة لكل الأدبيات المؤسّسة للعنف الديني، ويقتضي ذلك إزاحة كل الفوارق التي يقيمها الخطاب النّقدي الغربي للإسلام والمسلمين، فالأديان جميعًا، في مستوى واحد لا فرق بين الإسلام وغيره من الديانات السماوية أو البشرية.

لكنّ التساؤل الأكبر الذي يطرحه أمين معلوف في هذه المسألة، مرتبطٌ بتصاعد العنف والتعصّب الديني في الأزمنة المعاصرة، أكثر من أيّ وقت مضى،ومن هنا يتساءل أمين معلوف عن الأسباب الحقيقية وراء هذا الأمر البارز في كل المجتمعات المعاصرة بلا استثناء. ويصوغ تساؤله على النحو الآتي:" تقوم على محاولة فهم الأسباب التي تدعو الكثيرين اليوم إلى القتل باسم هويتهم الدينية والإثنية والقومية أو غيرها.هل كان هذا الوضع قائما منذ فجر التاريخ أو أنّ ثمّة حقائق خاصة بعصرنا الراهن؟"٣

من الضروري، بحسب أمين معلوف،العودة إلى الخلفيات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتاريخية التي يعيشها العالم الثالث، بالخصوص، ويجمل المسألة في التّركة الاستعمارية التي لم يستطع العالم العربي والإسلامي التّخلّص منها، لأنّ فعاليتها تجاوزت كل الأطر والاحتكام إلى فعالية القوة كمسيّر ومنفذ للسياسة الخارجية لدى الدول الكبرى،زائد الطمع المتزايد في هذه الدول في الثروات الطبيعية والبشرية وما تمثّله العولمة من تحدٍّ للهويّات الصغرى في العالم الثالث،حيث تعمل هذه الحركية العولمية على قبرها ومحوها من خارطة الوجود بما يجعلها غير فاعلة وهامشية.

ومن هنا، نفهم لماذا تتعاظم مخاوف المتديّنين في العالم من مغيّبات العولمة وخطورتها على وجودهما وكينونتهم،هناك ما يشبه فوبيا العولمة" لدى العرب وغيرهم ومنها نهض الإلغاءُ والإرهاب والإقصاء ومن ثمّ الموتُ. يمثّل الموتُ، في هذه الحالة، تحدّيًا لآلة الإرهاب الغربية وشكلاً من أشكال رفض

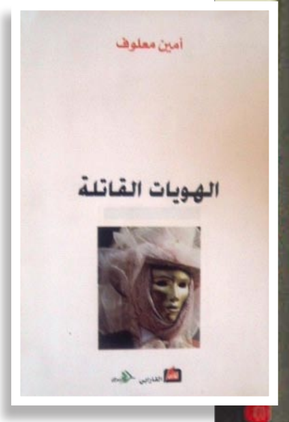

"لقد علمتني حياة الكتابة أن أحذر الكلمات. فتلك التي تبدو أكثر وضوحا، هي في الغالب أشدها خيانة.. ولعل أحد هؤلاء الأصدقاء المزيفين، هو بالتحديد كلمة "هوية".

أمين معلوف، الهويات القاتلة، ص: ١٥

ظلال الهويات المجنونة: في نقد الهوية والإنتماء عند أمين معلوف

عبد المجيد الجهاد

أقيم في الثاني والعشرين من أكتوبر/ تشرين الاول الحالي بمدينة "أوبييدو" الإسبانية، حفل التتويج الرسمي للروائي والمفكر الفرنسي اللبناني الأصل "أمين معلوف"، بمناسبة حصوله على جائزة "أمير أستوريا‌س للآداب" للعام ٢٠١٠. وتعد هذه الجائزة، أرفع درجة في سلم الجوائز التقديرية، التي تمنحها الدولة الإسبانية في ثمانية مجالات إبداعية وفكرية مختلفة. وقد اعتبرت لجنة التحكيم في حيثيات تقريرها، "أن أعمال أمين معلوف المترجمة إلى أزيد من عشرين لغة، تجعل منه أحد أبرز الكتاب المعاصرين الذين سبروا بعمق ثقافة حوض المتوسط، كمساحة رمزية للتعايش والتسامح". وبفوزه بهذا الاستحقاق، ينضم معلوف إلى قافلة كبار الأدباء العالميين، الذين سبق أن حظوا بشرف هذه الجائزة، كالبيروفي "ماريو بارغاس يوسا"، والإسباني "كاميلو خوسي سيلا"، والألماني "غونتر غراس"، والألباني "إسماعيل قاداريه".

ولد أمين معلوف في ٢٥ فبراير/شباط سنة ١٩٤٩ ببيروت. بعد إكمال دراسته في مجالي الاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع، وجريا على عادة أسلافه، سيلج عالم الصحافة من بابه الواسع. حيث سيشتغل في هذا الصدد محررا اقتصاديا في جريدة "النهار" اللبنانية، ثم بعدها سيشد الرحال ليستقر بباريس في عام ١٩٧٦، بعد اشتداد الحرب الأهلية اللبنانية، ليتولى هناك مهمة رئيس تحرير مجلة "جون أفريك" و"إيكونوميا". كما قام أيضا بتغطية أحداث سياسية مهمة، مثل حرب فييتنام والثورة الإيرانية، وأنجز أزيد من ستين ربورتاجا في نواح متفرقة من العالم، قبل أن يتفرغ نهائيا للكتابة الروائية في سنة ١٩٨٥، بعد النجاح المدوي الذي عرفه كتابه: "الحروب الصليبية كما رآها العرب" الصادر سنة ١٩٨٣. وقد صدرت له في هذا الشأن، العديد من الأعمال الأدبية والفكرية، نذكر من بينها على الخصوص: "ليون الإفريقي" (١٩٨٦) و"سمرقند" (١٩٨٨) وحدائق النور (١٩٩١). كما ترجمت أعماله إلى أكثر من عشرين لغة عالمية. ولعل أهم ما يميز أعمال معلوف الروائية، هي أنها تسعى إلى مد جسور التواصل بين عالمي الشرق والغرب، اللذين لا يكف عن إعلان الانتماء إليهما معا، وهو ما أهله للحصول على جوائز عالمية عدة، وخاصة: جائزة "الصداقة الفرنسية العربية" عام ١٩٨٦، عن روايته "ليون الأفريقي"، وجائزة "غونكور" الفرنسية عن روايته "صخرة طانيوس" عام ١٩٩٣.

للتعريف ببعض مواقف وأطروحات الرجل الفكرية، نقدم في هذه المقالة، قراءة في كتاب: "الهويات القاتلة"، الذي صدر له سنة ١٩٩٨ عن منشورات "جراسي" بفرنسا. ويعد هذا الكتاب في نظر العديد من النقاد والدارسين، من بين أهم أعماله الفكرية التي يسائل فيها أمين معلوف بحسه النقدي الرفيع وأسلوبه الرقيق، موضوعات لها راهنيتها اليوم، مثل: الهوية والانتماء والعولمة.

القتل على الهوية: أصل الحكاية

تبتدئ حكاية أمين معلوف مع موضوع الهوية، حين غادر لبنان بلده الأصلي في أحد أيام سنة ١٩٧٦، هربا من أتون حرب طاحنة لا تبقي ولا تذر. وبعد أن استعر أوار المعارك بين الإخوة الأعداء، وانزلقت من حرب سياسية معلنة إلى حرب طائفية وإلى "قتل على الهوية"، قرر الرحيل بعيدا ليستقر به المقام في فرنسا. ولكن من مفارقات القدر، أن "القتل على الهوية" سيتخذ هذه المرة بعدا رمزيا، حيث سيظل سؤال الهوية يطارده كاللعنة أينما حل وارتحل.

لم يحس معلوف بعقدة الانتماء حين حل بفرنسا، لأنه كان يشعر بالانتماء إليها "بالقوة" من خلال الثقافة، قبل أن يصبح منتميا لها "بالفعل" بحكم الجغرافيا. وقد توطدت هذه العلاقة منذ وطئت قدماه أرض فرنسا، وشرب ماءها ونبيذها، ولا مست يداه أحجارها القديمة، كما يقول. (معلوف، ص: ٨). غير أن هذا "الإحساس بالانتماء" بدأ يتعمق لديه، بل وأصبح يضطهده منذ اللحظة التي سئل فيها، عما إذا كان يحس في "قرارة نفسه"، بالانتماء إلى فرنسا أم إلى لبنان. وكان جوابه البدهي: "إنه يشعر بالانتماء إليهما معا". (معلوف، ص: ٧).

لكن جوابا كهذا، لم يكن كافيا ليقنع محدثيه، وهو الذي لم يكن يشك لحظة واحدة في حسن نية سائليه. إذ كان أحيانا، وبمجرد الانتهاء من الاستفاضة في إيراد الأسباب الدقيقة والعميقة التي تحمله على أن يتبنى هذا "الانتماء الكلي" إلى الثقافتين العربية والفرنسية، يفاجأ بأحدهم يتقدم نحوه، وهو يربط على كتفه هامسا: "لقد كنت محقا فيما قلته، ولكن هل هذا ما تشعر به فعلا في قرارة نفسك؟"

مثل هذه الأسئلة "المبتسرة" التي لم يكن يعرها معلوف اهتماما في بداية الأمر، واعتاد أن يقابلها بابتسامة عريضة، أضحت تشكل مع مرور الوقت مصدر إزعاج وقلق لديه. ومع تكرار طرحها بدأ يدرك، أنها ليست من نوع الأسئلة العادية التي يمكن للمرء أن يغض الطرف عنها، بل أسئلة إشكالية أكثر تعقيدا، تتوجب منه مزيدا من الحرص والحذر، كونها تنم في العمق عن تمثلات محددة للهوية. ولعل أحد أخطر هذه التمثلات وأصعبها، تلك التي تعتقد في وجود مظهرين اثنين للهوية: مظهر جلي نعلنه ونبديه في أفعالنا وسلوكنا، وآخر خفي نداريه ونحجبه في دواخلنا وسرائرنا.

وهكذا فعندما نسأل عما نحن إياه في قرارة أنفسنا، يقول معلوف متبرما، فهذا معناه أن لكل إنسان قرارة نفس، انتماء واحدا مهما، يشكل "حقيقته" العميقة بشكل ما، هي التي يتحدد في ضوئها جوهره منذ الولادة مرة واحدة وإلى الأبد، من دون أن يتغير أبدا. كما لو أن الباقي، كل الباقي، أي مسيرته كرجل حر، وقناعاته المكتسبة، وتفضيلاته، وحساسيته الخاصة، وميوله، وحياته كمحصلة، لا تهم في شيء. وعندما نحث معارضينا على تأكيد هوياتهم مثلما نفعل اليوم في أغلب الأحيان، فما نقصده هو أن عليهم أن يجدوا في أعماقهم ذلك الانتماء الأساسي المزعوم، الذي غالبا ما يكون دينيا أو قوميا أو عرقيا أو إثنيا، ليرفعوه في وجه الآخرين". (معلوف، ص: ٩)

هذه المواقف جعلت أمين معلوف يعيد صياغة السؤال بخصوص الدلالات الحقيقية والأبعاد الكامنة وراء حاجة الناس إلى الانتماء الجماعي، ثقافيا كان أم دينيا أم وطنيا؟ وعن الدواعي من وراء هذه الرغبة الشرسة، والمشروعة في تأكيد الذات، التي تقودهم إلى الخوف من الآخر والسعي إلى إلغاء حقه في الوجود؟ أي بعبارة: التساؤل بشأن مفهوم الهوية وانزلاقاته القاتلة.

في نقد التصور القبلي (tribale) للهوية:

لم يكن معلوف وهو يخوض في هذا الموضوع يقلل من حجم المشكلات التي قد تعترضه، بل كان يعي جيدا، أن مفهوم الهوية يعد من بين أكثر المفاهيم تعقيدا، ليس لكونه يصر بعناد على الانفلات من التحديد والضبط، بل لكونه أصبح اليوم أقل استقرارا، لدرجة غدا من الصعب مقاربته وتأطيره من دون استحضار بعدي الزمان والمكان. ذلك أن الهوية بشكل عام، تتعلق بأفهام الناس وتمثلاتهم لذواتهم، ولما يعتقدونه مهما في حياتهم، وتتشكل انطلاقا من خصائص محددة، تتخذ مرتبة الأولوية على غيرها من مصادر المعنى والدلالة.

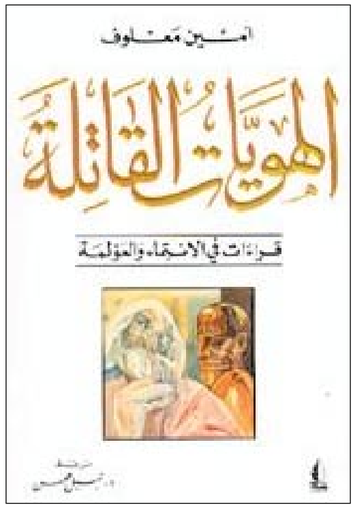

(أنطوني غدنز، ص: ٩٠).

غير أن الهوية، في مستواها الفردي والجماعي، وإن كانت تشير في دلالتها العامة، إلى الطريقة التي نعي بها ذواتنا، ونرسم من خلالها صورة متميزة لما نكونه، ولما تكونه علاقتنا مع العالم من حولنا، فإن هذه النظرة التي نحملها عن أنفسنا وعن الآخر، ليست معطاة بشكل قبلي ونهائي، بل هي متحولة وتتشكل عبر التاريخ وتغتني من خلال التجارب. (أنطوني غدنز، ص: ٩١).

ومن ثم، يعلن معلوف رفضه التصور التبسيطي والقبلي الذي يختزل مفهوم الهوية بردها إلى مبدإ واحد وثابت، معتبرا أن الهوية، فردية كانت أم جماعية، ليست معطى فطريا استاتيكيا، يعطى دفعة واحدة وإلى الأبد، بل إنها تتشكل على الدوام، وتتحول على طول الوجود. وهو ما يجعل من الهوية بالضرورة، مفهوم مركبا ومتعددا، كونه لا يحيل على انتماء واحد، بل عن مجموعة من الانتماءات التي قد تتفاوت في تراتبها من حيث الأهمية، وتشي بدلالة ما، وهذه الانتماءات المتعددة هي التي تعطي للشخصية الفردية والجماعية في النهاية، غناها وقيمتها الخاصة. وهذا الأمر لا ينطبق على الهوية الجماعية فحسب، بل ينسحب أيضا على الهويات الفردية للأشخاص، ويؤثر في تحديد الاختلافات والفروقات بين الجنسين أيضا. ومن هنا تبرز أهمية الدور الذي يلعبه المحيط الاجتماعي في رسم التمثلات الذهنية وتكييف المواقف لدى الأفراد، وفي "تحديد معنى الانتماء" لديهم. "فأن تولد الفتاة في كابول أو أوسلو ليس له المعنى ذاته. فهي لا تحيى أنوثتها بالطريقة ذاتها، ولا أي عنصر آخر من هويتها". (معلوف: ص: ٣١)، وهو ما يذكرنا بقول سيمون دو بوفوار المأثور: "إننا لا نولد نساء، بل نصير كذلك".

إن الإقرار بهذا التنوع والتعدد في الانتماء، بحسب معلوف، يصبح عامل خصب وغنى، إذا أحسنت البشرية استثماره بشكل جيد. ولكنه قد يتحول بالقابل إلى تعصب وتطرف أعمى و"مصدرا محتملا للصراع بين الناس"، حين يتم اختزاله قسرا داخل هوية واحدة كاملة مطلقة متعالية، تدعي تفوقها على الجميع، ونزوعها القوي للهيمنة على باقي الهويات الأخرى... أي حين تتحول إلى "هوية قاتلة".

في مفهوم الهوية القاتلة:

يعني معلوف بهذا المفهوم، ذاك النزوع من الوعي والتفكير، الذي يختزل الهوية بردها إلى مصدر واحد، ويجعل الناس في موقف متحيز ومذهبي ومتعصب ومهيمن، وأحيانا انتحاري، ويحولهم في الغالب الأعم إلى قتلة أو إلى أنصار للقتلة. (معلوف، ص: ٣٩).

ولعل هذا ما جعل معلوف ينطلق في بناء تصوره لمفهوم "الهوية القاتلة" من سؤال أساسي قد يبدو للوهلة الأولى بدائيا، أو على الأقل مكرورا، ويتلخص هذا السؤال كالتالي: ما الذي يجعل الناس اليوم يرتكبون جرائمهم باسم هوياتهم، سواء كانت هذه الهوية دينية أم إثنية أم قومية أم غيرها؟ وما الذي ينبغي فعله، حتى نحول دون أن تتحول شريعة القتل باسم الدفاع عن الهوية، إلى نوع من الدفاع المشروع؟

يجيب معلوف بالقول: إن كل شخص من دون أي استثناء، يتمتع بهوية مركبة، يكفيه أن يطرح بضعة أسئلة ليستخرج كسورا منسية وتشعبات لا شك فيها، وليكتشف أنه مركب وفريد وغير قابل للاستبدال (معلوف: ص: ٢٨)، وهذا هو بالضبط ما يشكل هوية كل فرد، فيجعل من الواحد قاتلا، ومن الآخر رجل حوار ووفاق. (معلوف: ص: ٢٩).

إن هذه الهوية التي نستمر في الولاء لها، إما بحكم العادة أو لضعف في الخيال أو بفعل الانصياع، قد تتحول من "تطلع مشروع إلى أداة حرب" مدمرة، وإلى مصدر خطر وتهديد للإنسانية جمعاء، (معلوف: ص: ٣٠)، إذا لم نفلح في لجمها والتحكم فيها. وهو ما يطرح السؤال الصعب: كيف السبيل إلى قهر رغبة هذا "الفهد" الذي يزداد اليوم عنادا وتنطعا؟ وما الذي بمقدورنا فعله بقصد لجم جموحه وجنوحه نحو القتل؟ من المؤكد، أنه إزاء معادلة كهذه لن تجدي الحلول السهلة نفعا: فإذا نحن طاردنا الفهد يقتل، ويقتل أيضا إذا تركناه طليقا، والأسوأ أن نتركه حرا في الطبيعة بعد أن نكون قد جرحناه"؟

وفي أحسن الحالات، لن تعالج إشكالية الهوية "بالاضطهاد والتواطؤ"، كما يقول معلوف، بل "بتفحصها ودراستها بهدوء وفهمها، ثم السيطرة عليها وترويضها، إذا كنا لا نريد أن يتحول العالم إلى غابة"، (معلوف: ص: ١٦٥). وهذا يعني، أن الحد من الانحرافات القاتلة للهوية، لن يتأتى بالنبذ والإقصاء، بل بتبادل الاعتراف بين الهويات المتعددة، والإقرار باختلافها.

إن أمرا كهذا، وإن كان يبدو من غير اليسير إنجازه، ليس مستحيل التحقيق في تقدير معلوف. وهو ما يجعله يرى أنه إذا كان من الصعب أن نتوقع من معاصرينا تغيير عاداتهم في التعبير، فعلى الأقل لنبدأ بأنفسنا، ولنغير نظرتنا نحن تجاههم وتجاه ذواتنا أيضا.

"إن نظرتنا هي التي تحتجز الآخرين في انتماءاتهم الأضيق، في أغلب الأحيان، ونظرتنا هي الأقدر على تحريرهم أيضا"، (معلوف: ص: ٢٩)، وهو ما لن يتأتى إلا بالتخلص من الأحكام والتمثلات الهوياتية التي تقيم تفاضلا بين الهويات، وتعد هويتها هي الأصل، فيما الأخريات مجرد نسخ وظلال.

بهذا العمق الإنساني والنفس التعليمي الذي يتخلل مجمل صفحات كتاب: "الهويات القاتلة"، يختم أمين معلوف "مغامرته الإنسانية"، بالقول: "في العادة، عندما يبلغ الكاتب الصفحة الأخيرة من كتابه، تكون أمنيته الأغلى أن يظل كتابه يقرأ بعد مائة سنة، أو مائتين... أما في ما يخص هذا الكتاب، فإنني عكس ذلك، أمل أن يكتشفه حفيدي بالصدفة في خزانة العائلة في يوم ما حين يصبح رجلا، فيقلبه ويتصفحه قليلا، ثم يعيده إلى المكان المغبر الذي استله منه، وهو يهز كتفيه مستغربا: كيف أن الناس في زمن جده كانوا ما يزالون في حاجة إلى قول أشياء كهذه؟"، (معلوف: ص: ١٤٣).

عود على بدء:

بعد حصول أمين معلوف على الجائزة، سأله صحافي من قناة "أوروني‌وز" الإخبارية: "أنت لبناني، مسيحي، وعربي، فرنسي، أوروبي. أي من هذه الهويات أحب إليك؟ فرد عليه معلوف، بالقول: كان يقال في الماضي أن أعرابية سئلت: من أحب أبنائك إليك؟ فقالت المريض حتى يشفى، والغائب حتى يعود. وأقول الشيء نفسه بالنسبة للهوياتي. عندما تكون هناك مشكلات في لبنان فأنا أتألم وأشعر بأني لبناني أكثر، وعندما تكون هناك مشكلات في أوروبا أتصرف كأوروبي".

المصادر والمراجع:

١- *Amine Maalouf. Les identités meurtrières.- Paris: Ed. Grasset ; ١٩٩٨*

وللإشارة فقد صدرت ترجمة عربية للكتاب، تحت عنوان: الهويات القاتلة: قراءات في الانتماء والعولمة، ترجمة: نبيل محسن.- دمشق: دار ورد للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، غير أنه شابتها بعض الأخطاء واللهفوات، وهو ما جعلنا نعتمد بالأساس النسخة الأصلية بالفرنسية.

٢- *أنطوني غدنز، علم الاجتماع، ترجمة: فايز صايغ.- بيروت: المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥.*

رحلة بالداسار

شوقي بزيع

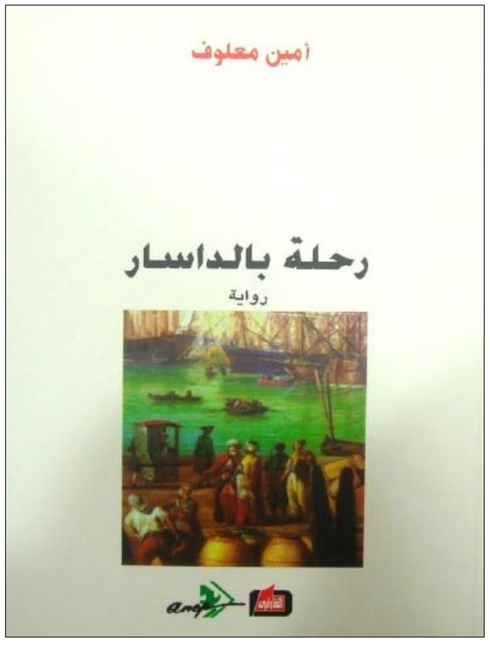

يتابع أمين معلوف بدأب ومثابرة مسيرته الروائية المميزة التي لاتـزال تعمل منذ انطلاقتها على استقراء التاريخ واستنطاقه ومساءلته منذ (ليون الإفريقي) و (سمرقند) وحتى (حدائق النور) و (صخرة طانيوس) و(رحلة بالداسار) لا يكف معلوف عن تجديد أسئلته المتعلقة بمفهوم الهوية والوطن والقومية والثقافة والفكر. كل رواية من رواياته هي تأصيل متكرر لمعنى العلاقة بين الأنا ونفسها من جهة وبين الأنا والآخر من جهة أخرى. وليس من قبيل الصدفة تبعا لذلك أن يتحرك أبطاله جميعاً فوق جغرافيا الرحيل الدائم والنزوح المستمر من بلد إلى بلد، ومن ثقافة إلى ثقافة، كأنهم جميعا صرخة ممزقة يتنازعها التراب الصافي والتوق إلى النزوح والمغامرة. أو كأن أحدا منهم لا يستطيع اكتشاف نفسه إلا في ضوء الالتباس والتعدد وانقسام الذات أو انشطارها. لم يكن (مانى) بهذا المعنى سوى التعبير الأولي عن الضديات التي تلت والتي تجاوزت ثنائيتها فيما بعد لتدخل في هويات أكثر تشظياً وأشد تمثيلاً للكثرة والتعدد. كل بطل من أبطال معلوف هو (مفرد بصيغة الجمع)، على حد أدونيس، أو تجليات جمعية للجسد المفرد.

لقد باتت هذه الفكرة بالذات هي السمة الغالبة على روايات أمين معلوف وعوالمه السردية. وإذا كان الكاتب في كل أعماله يستحضر التاريخ، وتاريخ القرون الوسطى في الأغلب الأعم، فذلك لكي يستحضر اللبنات الأولى لأسئلة الراهن الملحّة في عالم يصر بعض مفكريه بإلحاح على الأخذ بمقولة صراع الحضارات ودفعها إلى حدود التنابذ المطلق. هكذا تتخذ الكتابة عند معلوف صفة المشروع الفكري الكامل الذي يتعدى السرد الروائي العادي ليبحث في الماضي البعيد عن ظهير لمقولته البديلة التي تحل الحوار محل الصراع وتدعو العالم بأسره إلى فتح عينيه على حقيقة تواصله الدامغة. وحتى في عمله الروائي شبه الوثائقي (الحروب الصليبية كما يراها العرب) أراد معلوف بعناد واضح أن يلمّع صورة الجزر المشتركة التي ظلت تجمع بين أطراف الصراع الدموي في بداية الألفية الثانية وتشكّل بذوراً للتفاعل والأمل وسط محيط واسع من الدم المراق. وما حاول معلوف أن يوضحه موارية عبر عوالم الرواية والأدب أوضحه بشكل سافر وصريح في كتابه الفكري (الهويات القاتلة) مثبتا أن الهويات الخالصة والصافية ليست سوى ضرب من ضروب الوهم، ومتخذاً من تجربته الشخصية، ككاتب ذي هويتين، الدليل الحي والملموس على ما يرمي إليه.

الترحال كرمز

تدخل (رحلة بالداسار) عمل معلوف الأخير، إذن في السياق نفسه وتكمل مسلسل الرحيل الذي استمرأه الكاتب منذ البداية ووجد فيه ضالته ومبتغاه. فالترحال بالنسبة له هو الرمز الأشد تعبيراً عن معنى الهوية المتغير والرجراج. فالإنسان ليس تراباً مغلقاً على نفسه بحسب الكاتب بل هو تراب يمشي وفق رؤية شاعر المحكية اللبناني إيليا أبو شديد. وإذا كانت هذه المقولة تنسحب على كل تراب في الأرض، فإنها تعبّر عن التراب المتوسطي على وجه الخصوص. هذا التراب الذي كان طيلة قرون طوال مفتوحاً على الخارج ومشرعاً على رحابة المياه منذ عهد الفينيقيين، وربما قبلهم بكثير. وبالداسار إمبرياكو، بطل الرواية الأخيرة، ليس سوى تأكيد جديد على ما يجعل جانبي المتوسط ضفتين لبحيرة واحدة ولو كانت كل منهما تحتفظ لنفسها بالكثير من الخصوصيات.

فبالداسار اللبناني المقيم في جبيل هو سليل متأخر لأسرة إمبرياكو العريقة التي قدم بعض أبنائها إلى لبنان في إطار الحملات الصليبية الأولى ثم استقرّوا على شواطئه بفعل ظروف طارئة، تماماً كما كان يحدث بالمقلوب للكثير من الأسر اللبنانية. واللافت في الرواية، كما في روايات أخرى لمعلوف مثل (ليون الإفريقي) و (صخرة طانيوس) على وجه الخصوص، ذلك التركيز الشديد على دور التجارة الرئيس ليس في رسم مجرى السياسة فحسب، بل في نشوء الدول واشتعال الحروب وقيام التحالفات وصولا إلى تحديد معنى الهويات نفسها. ومعلوف المتحدر من أصول فينيقية ذات ميل تجاري حاسم لم يجد ما يقلل من وطأة العصبيات والأصوليات المتناحرة أكثر من الاستسلام للرياح التجارية والإصغاء إلى نداءاتها المتعاظمة في منطقة من العالم تغص بالأنبياء والقدّيسين.

لم يكن من قبيل الصدفة كذلك أن تدور أحداث الرواية الأخيرة في القرن السابع عشر، قرن الصراع المستشري بين الإمبراطوريات والحروب الأهلية والإثنية والدينية الضارية. ولم يكن الصراع بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي هو الوجه الوحيد لتلك الحروب الضروس، بل كانت الصراعات التي تدور داخل كل من المحورين أشد هولاً وضراوة من الصراع الأول. فهنا وهناك تذر قرنها رياح العقائد، وهنا وهناك ينقسم الإسلام على نفسه وتخرج من أحشائه عقائد وتفاسير وفرق باطنية دموية بالطريقة نفسها التي تنقسم فيها الكنيسة بين بابوية محافظة وبروتستانتية انقلابية، من دون أن تكون اليهودية بدورها بمنأى عن تلك العواصف. ثمة إسقاط واضح من الماضي على الحاضر. والرواية عند معلوف تتحول من هذه الزاوية إلى رسالة مفتوحة لكل مَن يعنيهم الأمر وإلى بؤرة غنية بالدلالات مفادها أن العالم لا يتعلم كثيرا من ماضيه وأن الصراع بين الشرق والغرب ليس سوى تشويه زائف لمنطق الأمور. فالأنا حين تنغلق على نفسها بإحكام، وحين ترفض الإصغاء إلى ما سواها، لن تجد نفسها حينئذ في حرب مع الآخر البعيد وحده، بل مع كل مَن لا يشاطرها الرأي والمعتقد حتى لو كان هذا الآخر قابعاً في الغرفة المجاورة أو الاجتهاد المغاير.

ذريعة مرعبة

إن مقولة نهاية العالم التي تدور أحداث الرواية بموازاتها وقبلها بقليل لم تكن سوى الذريعة التي حاول من خلالها أمين معلوف أن ينفذ إلى ما يريد استخلاصه من عبر ونتائج. فتحت سقف تلك الفكرة المرعبة يتحول الصراع بين البشر إلى صراع عبثي شبيه بصراع الملاحين داخل سفينة تغرق، كما يتحول الجدال الدموي بين الشيع والمذاهب إلى شيء شبيه بجدال أهل بيزنطة حول جنس الملائكة داخل أسوار يدكّها الرعب من كل جانب. كان لابد من ذريعة مناسبة لكي يخرج بالداسار من مدينة جبيل اللبنانية متجوّلا في العديد من مدن المتوسط وصولا إلى محطات أخرى تقع خارج حدود هذا البحر. وقد وفّر معلوف الذريعة عبر بحث بالداسار عن كتاب نادر منسوب لمؤلف عربي مسلم هو أبو ماهر المازندراني ويسمى (كتاب المئة). والكتاب الذي أهداه لبالداسار أحد المسنين في جبيل يتضمن إضافة إلى أسماء الله الحسنى التي تبلغ التسعة والتسعين، الاسم المستور لله تعالى أو الاسم المئة الذي يستطيع العارف به أن يرد أي خطر داهم وأن يدفع الأذى عن نفسه وعن العالم، إذ إن روايات عدة تتحدث عن معرفة نوح عليه السلام بهذا الاسم، الأمر الذي أتاح له النجاة من الطوفان. لكن بالداسار الذي حصل بأعجوبة على الكتاب لم يعرف كيف يحافظ عليه، فباعه في لحظة تشوش ذهني إلى الفارس الفرنسي مارمونيتل الذي قدم إلى جبيل لهذه الغاية ثم غادر مسرعا باتجاه القسطنطينية. لم يكن بالداسار، وفق الرواية، واثقاً تمام الثقة من الشائعات التي سرت بين الناس سريان النار في الهشيم حول زوال العالم في السنة التي تلي بداية الأحداث والتي أطلق عليها اسم (سنة الوحش) والمتطابقة مع العام ١٦٦٦ لميلاد المسيح . غير أن الشك الذي ظل يعتمل في داخله إضافة إلى إلحاح ابن شقيقته المثقف والمؤمن يدفعانه إلى القيام بالرحلة مصطحبا خادمه حاتم وابني شقيقته الشابين، حبيب وجابر، ومارثا التي جمعته معها قصة حب مؤثرة قبل أن تتزوج من رجل فظ ومغامر يسمى (سياف) الذي ما يلبث أن يسافر إلى جهة مجهولة تاركاً وراءه زوجة وحيدة تنتظره من دون طائل.

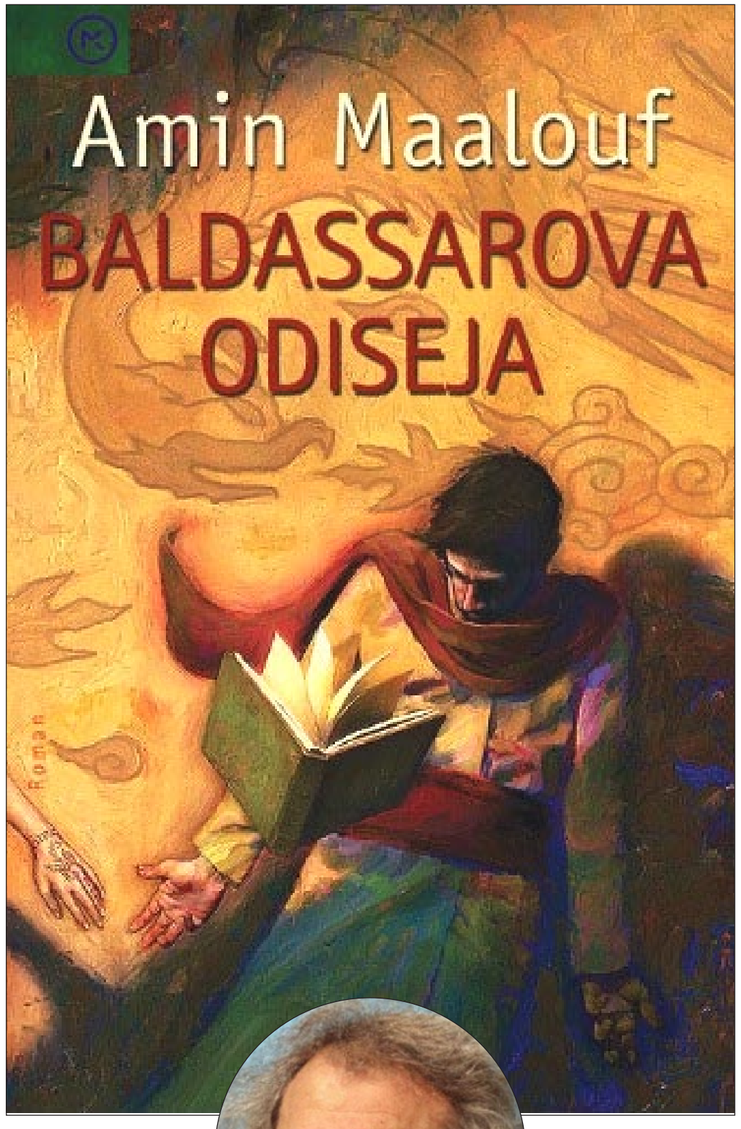

هكذا تنبني الرواية، الرحلة حول محورين اثنين: الكتاب المفقود والحب المفقود. كل منهما كان بحوزة بالداسار ولكنه أضاعه في غفلة من الزمن ومن دون انتباه، وكلاهما معاً يرمزان إلى السعادة أو الخلاص اللذين يومئان كالبرق في عراء العالم ثم يتلاشيان تاركين وراءهما سحابة من الندم والحسرة ورغبة عبثية في استعادتهما من جديد. والفكرة على أهميتها ليست جديدة تماما. ففي إحدى قصص (كليلة ودمنة) ثمة قصة لافتة تدور عن ذلك (الذي يطلب الحاجة فإذا ظفر بها أضاعها). وكتاب المئة لا يمكن إلا أن يذكرنا بكتاب الرمل الذي تحدث عنه بورخيس والذي يضم المعارف جميعها بلا بداية ولا نهاية، كما يذكرنا البحث عنه بالبحث عن كتاب أرسطو الضائع في رواية (اسم الوردة) للكاتب الإيطالي الشهير أمبرتو إيكو. ومع ذلك فالفكرة نفسها لا تذكّر بهذه الأعمال الأدبية الثلاثة فحسب، بل تذكر في الوقت ذاته بالرؤية الدينية التي تربط الكلمة بأصل الخلق وجوهر وجوده. ففي البدء كانت الكلمة، بحسب العهدين القديم والجديد، وفي القرآن الكريم يستطيع الذي عنده علم الكتاب أن يأتي سليمان النبي بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه. وليس ضرباً من العبث أن يدفع أمين معلوف ببطله المسيحي إلى البحث عن كتاب منسوب إلى مؤلف مسلم، هو أبو ماهر المازندراني. وكما تتوزع فكرة نهاية العالم بالتساوي بين الديانات الثلاث تتوزع فكرة خلاصه بالطريقة نفسها بين هذه الديانات. فالفرق الباطنية السرية التي تنتظر المخلص في زاوية من زوايا مدينة حلب يقابلها في أزمير ظهور ساباتاي اليهودي الذي يزعم بدوره أنه المسيح المخلص كما تقابلها ظواهر أخرى مماثلة في الغرب المسيحي.

ظواهر مستشرية

عبر تلك الرحلة الغريبة يقدم لنا أمين معلوف فسيفساء متنوعة من الظواهر والأحداث السياسية والاجتماعية والدينية ويميط اللثام عن أحشاء القرن السابع عشر التي قطعت أوصالها الحروب الدينية والقومية والاقتصادية ونخرها الفساد حتى العظام. فمن خلال بحث مارثا المضني عن فرمان سلطاني يجعل زوجها الغائب بحكم المتوفى ويجيز لها الزواج من بالداسار نكتشف الفساد المستشري في جسد الإمبراطورية العثمانية المترامية من رأس الهرم إلى قاعدته، ليس فقط على مستوى العسكر العثماني (الانكشاري) بل على مستوى الوزراء والمستشارين والقضاة وصولا إلى بلاط السلطان. كل شيء مباح بوجود المال ومحظور بغيابه، حتى مجدف آخرق كساباتاي اليهودي يمكن له أن يحصل من كبير القضاة على اعتراف بدعوته وشعوذاته لقاء مبلغ معلوم، لكن الرشوة والفساد والجشع والخيانة ليست في الرواية ظواهر خاصة بالمشرق وحده، بل ظواهر مستشرية في كل محطات الرحلة التي تقود بالداسار إلى كيوس وجنوى وطنجة ولندن. كأن العالم بأسره كان يقف في ذلك القرن على حافة هاويته، ولم تكن سنة الوحش تبعا لذلك سوى المعادل الرمزي الجديد للسنة السابقة على طوفان نوح.

كان من الطبيعي اذن ألا يؤدي عثور بالداسار على كتابه المنشود في لندن إلى عثوره على مفتاح الخلاص. فالعطب، وفق معلوف، ليس موجوداً في التاريخ نفسه، بل في دواخلنا بالذات. والخلاص لا يأتي من الكتب، بل من الأحشاء المظلمة التي نستطيع نحن البشر أن نسلّط عليها ضوء البصيرة. لذلك فإن بالداسار الذي وجد الكتاب بعد رحلة مضنية كان يشعر بأن غمامة من السواد تعشي عينيه كلما شرع في القراءة، ذلك لأن المشكلة كامنة في عين القلب لا في الكلمات. والمكتبات والمنازل التي احترقت في أزقّة القسطنطينية لم تكن تعبيراً عن القوة الخارقة لكتاب المائة بقدر ما كانت انعكاساً لجرثومة الفساد والشر التي تعشش في نفوس البشر وأفكارهم. في تلك العالم المطحون برحى القسوة والاستبداد، وغياب العقل لابد أن يكون اللامعقول هو سيد الموقف. هكذا تعود مارثا إلى حضن سياف وتنتصر لجلّادها القديم على حساب حبّها المزمن، تماماً كما ينتصر المستضعفون لجلاديهم الكثر على حساب الحق والعدالة والحرية. والرحلة بدورها لم تنته حيث بدأت على ساحل جبيل، بل إن بالداسار يعود مع كتابه إلى حضن رحمه الأصلي في بلاد الغرب تاركا لنفسه، فيما بعد، أن يفك الحروف الطلاسم أو يضعها في عهدة الأجيال اللاحقة التي لابد أن تحسن القراءة!

"موانئ المشرق" لأمين معلوف والصراع بين الهوية والإنتماء

د. سامي مسلم

"موانئ المشرق" رواية شيقة من روايات أمين معلوف التي يكتبها باللغة الفرنسية وقد قامت السيدة نهلة بيضون بترجمة هذه الرواية إلى العربية.

وهي مثل روايات أمين معلوف الأخرى تنقل القارئ إلى الأجواء التي أوغل فيها الكاتب في البحث في أعماق التاريخ.

فللحظات ينسى القارئ الحاضر ويعيش مع أحداث الرواية في ذلك الزمن الذي تدور فيه الحكاية.

والحكاية في "موانئ المشرق" لها أكثر من اتجاه.

فهي حكاية عن الصراع في الشرق عبر مصير عائلة كتبدار. صراع في الخلافة العثمانية، وصراع بين الأتراك والأرمن، والحرب العالمية الثانية والمقاومة الفرنسية، وصراع داخل العائلة الواحدة بين الخير والشر، والصراع الفلسطيني الإسرائيلي وقضية التعايش المشترك، وهي أيضا صراع مع الذات وهي صراع الإنسان مع الشر، وصراع حول الهوية وصراع من أجل الوصول إلى التسامح والإنفتاح.

ومن هذا المزيج من الصراعات تبدأ حكاية "موانئ المشرق" التي تروي قصة عائلة تتحدر من أسرة "حكمت المشرق الفترة طويلة" (ص١٦) على الأقل من ناحية الجدة. فالجدة إيفيت هي ابنة آخر سلاطين الخلافة العثمانية، تكتشف بالصدفة أمر مقتل السلطان، وهي الأبنة المدللة له، فتصاب باللوثة العقلية. فتزوجها أمها لطبيب من عائلة كتبدار معروف عنه في أوساط اسطنبول أنه يعالج من أصابهم "الخبل أو الاستلاب" (ص٢٤). فينتقلان من اسطنبول إلى أضنة للعيش فيها بعيداً عن أعين الناس. وهناك ينجبان ولداً يكبر ويترعرع ويصبح مولعاً بالعلم وبالتصوير وبالتمرد على الأنماط السائدة، من خلال التصوير يتعرف إلى الأرمني نوبار ويصبحان صديقين حميمين تدفع كتبدار إلى حماية صديقه من ملاحقة الجماهير التركية الغاضبة، ما يجبره على الهجرة من تركيا إلى لبنان، ويصير صديقه الطبيب على أن يرافقه في هجرته، فيعده صديقه الأرمني بتزويجه من ابنته، وهذا ما حصل، وينتج عن هذا الزواج ثلاثة أبناء، البنت الكبرى، وعصيان وسالم. تموت الأم وهي تضع مولودها الأخير سالم، وتلحق اللعنة سالم مدى حياته، فيصبح مهربا للمخدرات، ويدخل السجن بسبب ذلك، ثم يخرج وتتحسن أحواله، فيسيطر على العائلة، ويرسل أخاه عصيان إلى "المصحة في الطريق الجديدة" ليستأثر بأملاك العائلة، ويصبح وزيراً في إحدى الحكومات اللبنانية، وفي النهاية يجده عصيان بعد تركه للمصحة مقتولا وملقى في بيت العائلة، فيتركه ويغادر إلى باريس.

عصيان، هو البطل المأساوي أو التراجيدي في هذه الرواية. ابن العائلة التي حكمت المشرق، لا يعرف من المشرق إلا بيروت وفيما بعد حيفا. يتعجب الراوي من هذا الاسم لأنه اسم غريب. ربما لم يتذكر الراوي أن هناك أسماء شبيهة بالمنطقة لاسم عصيان منها نضال وجهاد وثورة وكفاح وحرب. واسم "عصيان" قد يكون هو التعبير عن التمرد الذي كان والده يشعر به. فأطلق على ابنه هذا الاسم. وهذا الأب كان يريد لابنه باستمرار، أن يكون زعيماً ثورياً يجزم المرء أنها ليست موجودة عند معظم الآباء. فهؤلاء يريدون لأبنائهم أن يصبحوا إما أطباء أو مهندسين أو أي شيء آخر. وهو هدف يحققه عصيان لوالده من دون أن يخطط له.

وعصيان هذا ابن المشرق ينطلق من بيروت إلى فرنسا لدراسة الطب فيها. ولكن أحداث الحرب العالمية الثانية والاحتلال الألماني النازي لفرنسا يهيمن على كل شيء. ورويدا رويدا ينخرط بالمقاومة السرية الفرنسية ضد الاحتلال النازي، ويصبح فجأة أسطورة يذكر على كل لسان. بعد انتهاء الحرب يعود إلى بيروت ويصبح هناك مفخرة لأبيه ومحاضراً مطلوباً في جميع الأندية ليروي حكايته مع المقاومة.

خلال وجوده في فرنسا يتعرف بالصدفة على زميلة له بالمقاومة، كارا، نمساوية يهودية. ويقع بينهما الحب من أول نظرة. بعد انتهاء الحرب، تهاجر هذه النمساوية مع خالها استيفان، الناجي الوحيد من عائلته من المحرقة، إلى فلسطين عن طريق بيروت. هناك تبحث عنه وتزوره ويتقرر الزواج، ويبدأ عصيان بالتنقل بين حيفا وبيروت إلى أن تفرق حرب ١٩٤٨ في فلسطين بين الزوجين. يبقى هو إلى جانب والده المحتضر في بيروت وتبقى هي في حيفا تنتظر أن تضع مولودهما الأول، ناديا.

لا يلتقيان إلا بعد عشرين عاماً من العذاب الذي عاشه عصيان. بعد وفاة والده يصاب بانهيار، فيزجه شقيقه في المصحة وعمره ٢٩ عاما. وهناك يبقونه تحت السيطرة. ولا أحد يستطيع أن يعمل له شيئاً لإخراجه من هذه المصحة. فقط شقيقته تزوره ولا تستطيع أن تعمل شيئاً، وعندما تهاجر إلى استراليا تنقطع زياراتها له. وفي هذه الوحدة المفروضة عليه يزوره صديقه القديم برتران الذي يزور لبنان كوزير فرنسي. وهي المرة الوحيدة التي يخرج فيها من المصحة إلى بيت العائلة حيث يقيم شقيقه سالم لهذه الغاية مأدبة تكريمية على شرف الضيف الفرنسي. ولكن الفرصة تضيع لأنه كان مثقلا بجرعات المهدئات فيبعث في نفس صديقه الفرنسي الإحباط والحزن على ما آل إليه وضعه. وتضيع الفرصة. لكنه يتمكن، في لحظة استغاثة مكبوتة، من إطلاعه على صورة ابنته ناديا وهي طفلة. ولكن الوزير الفرنسي لم يفهم المعنى والمغزى.

ناديا ابنة العشرين، تذهب إلى فرنسا للدراسة وتلتقي بالسيد برتران وتحاول إقناعه بخطف والدها من المصحة. لكن الأخير يثنيها عن ذلك. ولكنها تصمم على الأقل أن تزوره لترى أحواله، فتذهب إلى لبنان متخفية باسم مستعار لعائلة كرستين الشهيرة وتدخل المصحة وتهدي والدها كتابا من دون أن تكشف عن هويتها. ولكنها تدس بالكتاب ورقة له تقول له فيها إنها ستخرجه من المصحة. وهذه الحادثة تعطي عصيان الأمل بأن ابنته ستأتي لتنقذه. لكن البنت بعد أن تعود إلى فرنسا لا تجد من يشجعها على خطفه، وبالنهاية تلتقي بحياتها وتتزوج وتهاجر إلى البرازيل.

ويبقى الوالد في المصحة إلى أن تقع الحرب الأهلية اللبنانية. فيهرب صاحب المصحة الدجال والطاقم "الطبي" من المصحة ويتركوها مشرعة الأبواب، فيغتنم عصيان الفرصة ويخرج من المصحة إلى بيته ثم إلى فرنسا سعيا وراء لقاء زوجته كارا.

هذا مختصر رواية "موانئ المشرق". وهي أيضاً حكاية تظهر إمكانات التأقلم في المجتمع العربي لأسرة غير عربية بالهوية، لجأت إليه وعاشت في كنفه عيشة جيدة ما يدل على الانفتاح والتسامح والانتماء، مع أن أفراد العائلة نفسها سارت بطريق لا تشتهيها.

تروي هذه الحكاية بأسلوب شيق من التحليل النفسي، مصائر هذه العائلة عبر ابنها "عصيان" وما آل إليه جراء الظلم العائلي والجشع المالي لتجار لا يتورعون عن القيام بأي عمل مقابل المال: إن كان في تجارة المخدرات أو تهريب الأسلحة أو استخدام الطب، وهو حرفة إنسانية، لأغراض لا إنسانية. إنها بكل بساطة حكاية إنسانية لعائلة من "شرق المتوسط" عرفت المال والمسؤولية والجاه، وعرفت المقاومة في أوروبا وعاشت تأثيرات حرب فلسطين بكل تفاصيلها وخاصة التفريق بين أفراد العائلة الواحدة.

"موانئ المشرق" عنوان فيه نوستالجيا حيفا تحت شعار الحزب الشيوعي وقضية التعايش العربي اليهودي. ولكن قضية فلسطين تعود لتفرق بينهما، وتجعل من حبهما حباً مستحيلا. وهي أيضاً حكاية إنها حكاية عائلة عاشت في ظل الخلافة العثمانية، على الأقل في الجانب الأرمني منها. ويُذكّر هذا الجزء منها برواية "يالو" للكاتب الكبير الياس خوري، الذي يروي قصة عائلة سريانية تعرضت للمجازر على أيدي الأتراك ومصير تلك العائلة في الحرب الأهلية اللبنانية عبر رواية حياة "يالو". هذه العائلة، مثل عائلة يالو لجأت إلى لبنان.

وهذه الحكاية هي حكاية إنسانية بامتياز معها القارئ خاصة لأن أحداثها تدور في النصف الثاني من القرن العشرين وما زالت قيد الذاكرة الشخصية للقارئ الذي عاش تجربة الحرب الأهلية التي عصفت بلبنان منذ منتصف سبعينيات القرن الماضي ولا تزال تداعياتها إلى اليوم. وهي حكاية تذكر بلباقة بقضية فلسطين بطريقة أو بأخرى، عبر قصة حب عصيان وكارا اللذين يجمع بينهما الزواج في بيروت والسكن في حيفا حتى شعار الحزب الشيوعي وقضية التعايش العربي اليهودي. ولكن قضية فلسطين تعود لتفرق بينهما، وتجعل من حبهما حباً مستحيلا. وهي أيضاً حكاية إنها حكاية عائلة عاشت في ظل الخلافة العثمانية، وتعرضت لما تعرضت له من ملاحقة، على الأقل في الجانب الأرمني منها. ويُذكّر هذا الجزء منها برواية "يالو" للكاتب الكبير الياس خوري، الذي يروي قصة عائلة سريانية تعرضت للمجازر على أيدي الأتراك ومصير تلك العائلة في الحرب الأهلية اللبنانية عبر رواية حياة "يالو". هذه العائلة، مثل عائلة يالو لجأت إلى لبنان. وهذه الحكاية هي حكاية إنسانية بامتياز معها القارئ خاصة لأن أحداثها تدور في النصف الثاني من القرن العشرين وما زالت قيد الذاكرة الشخصية للقارئ الذي عاش تجربة الحرب الأهلية التي عصفت بلبنان منذ منتصف سبعينيات القرن الماضي ولا تزال تداعياتها إلى اليوم. وهي حكاية تذكر بلباقة بقضية فلسطين بطريقة أو بأخرى، عبر قصة حب عصيان وكارا اللذين يجمع بينهما الزواج في بيروت والسكن في حيفا تحت شعار الحزب الشيوعي وقضية التعايش العربي اليهودي. ولكن قضية فلسطين تعود لتفرق بينهما، وتجعل من حبهما حباً مستحيلا. وهي أيضاً حكاية إنها حكاية عائلة عاشت في ظل الخلافة العثمانية، وتعرضت لما تعرضت له من ملاحقة، على الأقل في الجانب الأرمني منها. ويُذكّر هذا الجزء منها برواية "يالو" للكاتب الكبير الياس خوري، الذي يروي قصة عائلة سريانية تعرضت للمجازر على أيدي الأتراك ومصير تلك العائلة في الحرب الأهلية اللبنانية عبر رواية حياة "يالو". هذه العائلة، مثل عائلة يالو لجأت إلى لبنان. وهذه الحكاية هي حكاية إنسانية بامتياز معها القارئ خاصة لأن أحداثها تدور في النصف الثاني من القرن العشرين وما زالت قيد الذاكرة الشخصية للقارئ الذي عاش تجربة الحرب الأهلية التي عصفت بلبنان منذ منتصف سبعينيات القرن الماضي ولا تزال تداعياتها إلى اليوم. وهي حكاية تذكر بلباقة بقضية فلسطين بطريقة أو بأخرى، عبر قصة حب عصيان وكارا اللذين يجمع بينهما الزواج في بيروت والسكن في حيفا تحت شعار الحزب الشيوعي وقضية التعايش العربي اليهودي. ولكن قضية فلسطين تعود لتفرق بينهما، وتجعل من حبهما حباً مستحيلا. وهي أيضاً حكاية إنها حكاية عائلة عاشت في ظل الخلافة العثمانية، وتعرضت لما تعرضت له من ملاحقة، على الأقل في الجانب الأرمني منها. ويُذكّر هذا الجزء منها برواية "يالو" للكاتب الكبير الياس خوري، الذي يروي قصة عائلة سريانية تعرضت للمجازر على أيدي الأتراك ومصير تلك العائلة في الحرب الأهلية اللبنانية عبر رواية حياة "يالو". هذه العائلة، مثل عائلة يالو لجأت إلى لبنان. وهذه الحكاية هي حكاية إنسانية بامتياز معها القارئ خاصة لأن أحداثها تدور في النصف الثاني من القرن العشرين وما زالت قيد الذاكرة الشخصية للقارئ الذي عاش تجربة الحرب الأهلية التي عصفت بلبنان منذ منتصف سبعينيات القرن الماضي ولا تزال تداعياتها إلى اليوم. وهي حكاية تذكر بلباقة بقضية فلسطين بطريقة أو بأخرى، عبر قصة حب عصيان وكارا اللذين يجمع بينهما الزواج في بيروت والسكن في

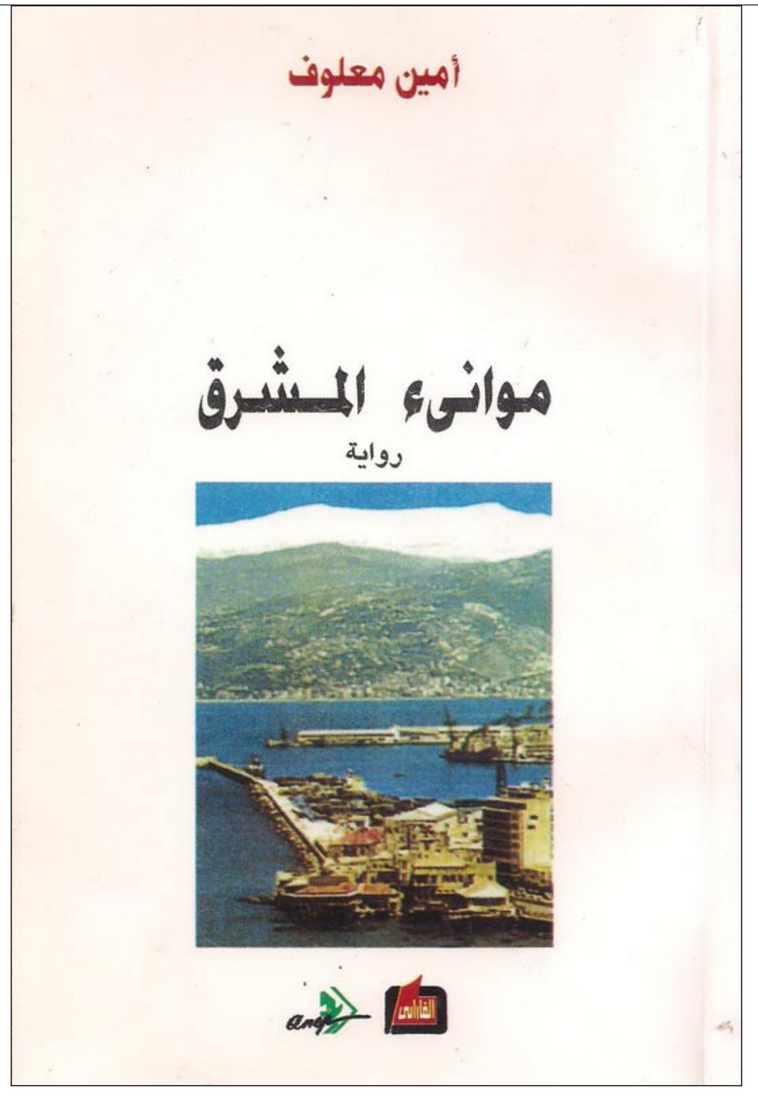

لزمن غابر كان مركزاً للامبراطوريات أو الخلافة، تسيطر على مدنه وتحكم مرافقه؛ امبراطورية أو خلافة ينتقل في أرجائها الناس من دون جوازات سفر ومن دون حدود ومن دون حواجز. كون البطل "عصيان كتبدار" الشخصية الرئيسة حفيد أسرة "حكمت الشرق"، كما قال للراوي مرة، من ناحية الجدة، لا يعني مع ذلك أنه كان مشاركا في الحدث أو فاعلا به أو في صناعة تاريخ المنطقة أو حتى أنه يعرفها.

من سوء طالع هذا البطل أنه بطل مأساوي، ربما مثلنا جميعاً في المشرق. لقد صعد هذا البطل إلى صفوف المقاومة الفرنسية أيام الحكم النازي لفرنسا وكاد يصبح أسطورة لولا أنه عاد إلى الوطن، لبنان، ليعيش مأساة إنسانية أودت به لأكثر من عشرين عاماً في مصحة عقلية في حي الطريق الجديدة في بيروت. ولم يخرج من هذه المصحة إلا بسبب المأساة الأخرى التي عصفت بكل لبنان وهي الحرب الأهلية عندما فرّ مدير وصاحب المصحة هذه والطاقم "الطبي" عند اقتراب المعارك منهم خوفا على مصالحهم المالية وخوفاً من اكتشاف أمرهم كمجرمين يمارسون الشعوذة الطبية على مرضاهم لإبقائهم "مجانين" مقابل مبالغ مالية مربحة. عندما يهرب هؤلاء تبقى أبواب المصحة مفتوحة، فيخرج هذا البطل المأساوي منها إلى العالم ليبحث عن ماض فيه زوجة، هي كارا، أصبحت مع مرور الزمن إسرائيلية الجنسية، وابنة اسمها ناديا تربت في إسرائيل وهجرتها إلى البرازيل.

يكتب أمين معلوف هذه الرواية على لسان راو مطلع على التاريخ. يلتقي صدفة في باريس ببطل الرواية "عصيان". يتعرف إليه لأن عصيان كان جزءاً من المنهج التدريسي عن الحرب العالمية الثانية. فصورته كانت تتصدر ذلك الفصل عن المقاومة كقائد بارز في المقاومة الفرنسية. وهذا اللقاء يتم بعد خروج عصيان من المصحة وسفره إلى باريس في رحلة البحث عن الماضي لبقابل زوجته اليهودية الإسرائيلية حالياً، النمساوية اليهودية سابقاً، عضو في المقاومة السرية الفرنسية ضد النازيين بمعنى آخر زميلة عصيان في النضال ضد الفاشية ومن أجل تحرير فرنسا. اللقاء كان سيتم في المكان الذي التقيا به أول مرة "في ٢٠ حزيران، الساعة الثانية عشرة ظهراً، على رصيف الساعة، بين البرجين الصغيرين. نعم ٢٠ حزيران، أي يوم غد". (ص ٢٣٧).

يلحق الراوي بعصيان، ويتعرف اليه ويصبح دليله في بداية الأمر. يقوم عصيان بزيارة الشوارع والحارات في باريس التي أطلق عليها الفرنسيون أسماء أبطال في المقاومة السرية ضد النازية. ومن هنا تبدأ الحكاية عندما يطلب الراوي من عصيان سرد قصته عليه، فيقص عصيان على الراوي حكايته خلال أربعة أيام بين صباح الخميس ابتداء من الساعة التاسعة صباحاً وحتى فجر يوم الأحد. ويتبعه بعد ذلك بشكل سري إلى موعد اللقاء الذي أعطاه لزوجته، كارا. وكان كل يوم تقريبا يجلس معها في غرفته الصغيرة في فندقه الصغير مرتين: جلسة في الصباح وجلسة في المساء، يدون الحكاية كما كان يرويها صاحبها عصيان دون تدخل كبير من جانب الراوي إلا ما ندر. وقد أطلق أمين معلوف على كل فصل من فصول هذه الرواية اسم انعقاد الجلسة مثلا "صباح الخميس، مساء الخميس، صباح الجمعة، مساء الجمعة، صباح السبت، مساء السبت، الليلة الأخيرة يوم الأحد". وكل فصل منها يتكون من فصول عدة أصغر قد تصل إلى خمسة.

ويقول الراوي إنه كتب ست مفكرات من رواية البطل، وتركها عشرين سنة مهملة في درج مكتبه. وبعد هذه المدة أخرجها ونقحها وكتب السيرة. وإذا ترجمنا هذا الكلام إلى تواريخ فإن تدوين هذه المذكرات يكون قد تم في منتصف السبعينيات عند بداية الحرب الأهلية في لبنان وتركت عشرين عاماً أي لمنتصف التسعينيات حتى رأت النور. ومع أن بطل الرواية لم تكن له مشاركة فعلية في الحرب الأهلية إلا أن المقارنة تفرض نفسها: هل المصحة في الطريق الجديدة من بيروت تمثل لبنان وما جرى به. وهل فكرة التعايش والتسامح هي ما يتبقى من رسالة مع القارئ في نهاية هذه الرواية؟

تنتهي هذه الرواية بنهاية سعيدة. يخرج البطل من المصحة العقلية، يسافر إلى فرنسا، ويطرق باب صديقه برتران، عضو المقاومة السرية، مسؤول عصيان في العمل السري، برتران الذي يصبح وزيراً في فرنسا الذي حضر إلى لبنان وحاول إنقاذ صديقه لكنه فشل ويعود حزينا إلى فرنسا. أما في هذه المرة عندما يعلم أن صديقه سيأتي إلى فرنسا يؤخر سفره إلى اليابان لمدة ٢٤ ساعة ليلتقي بذاك الصديق القديم من الشرق. والأهم في هذه النهاية السعيدة أن الزوجة السابقة كارا تحضر إلى الموعد المحدد في رسالة عصيان لها. نعلم من الراوي أنهما يتعانقان وتتشابك الأيدي، الابتسامة على محياهما واضحة، الناس من حولهما "يراقبونهما بحنان وفضول."

لكن الراوي لا ينهي الرواية بعودة عصيان وكارا لبعضهما البعض وإنما يطرح العديد من الأسئلة بشأن مستقبلهما ولماذا قد يكون حبهما حباً مستحيلا. ويترك الراوي المشهد هنا من دون إنهاء فلا يستطيع أن يراقبهما مثل الآخرين معللاً ذلك بقوله "فأنا لست مجرد عابر سبيل" (ص ٢٤٤).

يكتب أمين معلوف روايته بأسلوب قصصي خال من العواطف إزاء مصير الإنسان، ويتعامل معه بعقلانية تكاد تكون متطرفة. فعصيان يتقبل مصيره بصبر وبكثير من الأسئلة وقليل من الأجوبة وبتفكير عميق بخصوص مسألة: لماذا حدث كل ذلك معه. لا يجد الجواب بل لا يصل إلى جواب. لكن ذلك لا يمنعه من الاستمرار بالبحث عن الخلاص، والسعي وراء العدل. محاولاته الدؤوبة للاتصال بزوجته كارا الإسرائيلية الجنسية اليهودية المعتقد، اليسارية المواقف، تدل على أنه يعيش على الأمل، الأمل الذي دعمته في قلبه ابنته، ناديا، التي لم يرها منذ ولادتها حتى زيارتها له بعد عشرين عاماً، بأن الخلاص آت عن طريقها، ولا مفر من الوصول إلى خارج المصحة أو خارج المعتقل أو خارج الحصار. فالخلاص في هذه الرواية هو الدافع المحرك للأشياء. ويغض النظر عن السؤال هل عصيان أو غيره في الرواية شخصية حقيقية أو خيالية، صنعتها القوة الإبداعية لكاتب فاجأ القراء في كل رواية من رواياته بشخصية قدرية، فإن الرواية هذه تبقى رواية إنسانية جامعة أقرب ما تكون إلى الأحداث الجسام التي مرت بها منطقة المشرق أو شرق المتوسط. وقد يكون أسلوبه القصصي الخالي من العواطف والفكاهة، هو ما يميزه عن غيره ويحيط شخصياته بهالة من الجدية والرزانة في صراعهم من أجل الهوية والسعي الدؤوب للانتماء والتسامح والعدالة والبقاء برغم الجدران والحدود السياسية والجغرافية والخلافات الديمغرافية.

عن جريدة الأيام

حدائق النور لأمين معلوف:

حكاية نبي أخطأ الزمن

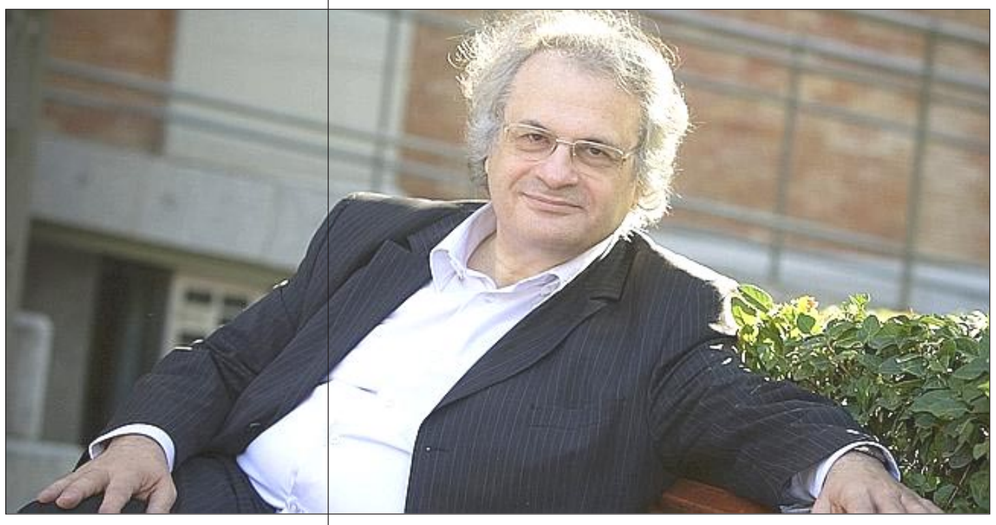

رشيد منيري

**"-إلى الأبد؟
ماني: إلى أبعد
في « حدائق النور »، يكتب أمين معلوف سيرة خاصة، لنبي عاش في القرن الثاني في بلاد ما بين النهرين، لكنها تتجاوز ذلك لتؤرخ لزمن يتواصل، يزداد فيه العطش إلى التسامح و الجمال بقدر ما تتسع مساحة الدمار. إن الجزء الأعظم من تاريخ البشرية كان و لا يزال تاريخ صراع، لكنه أيضا تاريخ نبوءات، و ماني، الذي يحكي الكتاب سيرته أو ما تبقى من سيرته بعد عصور من الكذب و النسيان، واحد من أنبياء الجمال و التسامح و الحب.**

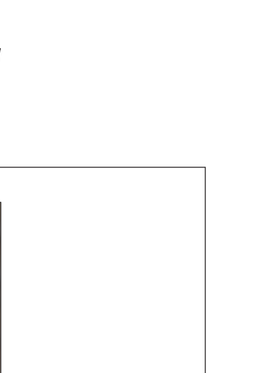

١

أدهش ماني جمال الكون، لكن دهشته لم تكن لتجعله يتخلى عن رزانة الحكيم و وثوقيته لصالح تشكك الفيلسوف أو خيالية الفنان. كانت نبوءته دعوة لاكتشاف الجمال الكامن في الإنسان و محيطه الواسع، لهذا كان يشجع "المختارين" ممن اتبعوا دعوته [يرفض كلمة أتباع] إلى ممارسة الفنون: "إن الشرارة الإلهية موجودة فينا جميعا... و على كل أحد أن يغذوها بالجمال و المعرفة، و بهذا تتمكن من التألق."(١)، و إضافة إلى كونه طبيبا بارعا، كان ماني أحسن رسامي عهده و المؤسس الأول للرسم الشرقي، و حين شاء شاهبور امبراطور الشرق وقتذاك أن يخلد صورته جريا على تقاليد الأسرة الإمبراطورية فإنه لم يختر غيره لهذه المهمة:

"- تقضي عاداتنا منذ القدم بأن يطلب كل ملك من أمهر رسامي عهده أن يرسم له صورته. و قد قيل لي بأنه أنت أيها الطبيب البابلي. أفتكون يدك لا تزال ثابتة؟

- تظل يدي طائعة.

- لقد أحضرت إلى هنا الكتاب الذي يضم صور أسلافي لترى أية طريقة ينبغي أن تتبع.

- لي طريقتي الخاصة في الرسم.

- ظننت أني سمعت أن يدك طائع.

- رأسي يرسم و يدي تطيع." (٢)

و كان عميق الإحساس بالموسيقى؛ يُعتبر أنه في فجر الكون كانت المخلوقات جميعها تسبح في نغم علوي قبل أن ينسينا إياه سديم الخلق. قال مخاطبا رازاف عازف القيصر: "غير أن عودا مدوزنا مع روح الفنان قادر على بعث تلك النغمات الأصيلة..." . كان ماني فنانا موغلا في العظمة، و ربما أخطأ طريقه نحو النبوءة.

٢

" أومن بجميع الأديان و لا أومن بأي منها"

كانت سماحة ماني إنسانية في عمقها، فما يهمه هو الإله الذي بداخل الإنسان و الذي يقويه هذا الأخير بالجمال و المعرفة، فمصير العالم بيد البشر. قوتان أساسيتان في رأيه تحكمان الكون: قوة "ملك حدائق النور" و "قوة سيد الظلمات". لم يَخلق أحدهما الآخر و لا يملك أحدهما مصير الآخر و الإنسان في الأخير هو الطرف الحاسم: "لقد عهد بـ"الخلق" إلى الإنسان. و إليه يرجع قبل أي كان أن يجعل الظلمات تتقهقر." (٣)، و ما كان يجعله منفتحا على كل الأديان،حتى الوثنية منها، هو إيمانه بالإنسان، لم يكن يراعي لاختلاف المعتقد مادام المعتقد هو نفسه." إن لكل شعب تقاليد دونت في شرائعه و نسبها للمشيئة الربانية"(٤)

و بالإمكان القول أنه في إصراره على الإنسان و على الجمال فيه، كان ماني قد سبق بأزمان عدة دعوات النهضة الأوروبية و الفلسفات المعاصرة، و لو أن هذه طرحت المسألة بشكل مختلف فيه خلو من نزعة الزهد و تحرر من الباطنية المفرطة. كان بهذا المعنى تقدميا إلى حدود بعيدة، متجاوزا عصره، و لا نعتقد على العموم أن هذه الخصلة الأخيرة محمودة بالنسبة لـ"نبي". إذ لربما كان هذا- كما تساءل الكاتب- أحد أسباب إخفاق دعوته. لقد عُذب ثم قتل مصلوبا.

٣

اختار ماني حياة الزهد. و لم يتخذ امرأة و لو أن علاقته بـ"ديناغ" لم تكن واضحة حتى لمناصريه تبعا للكاتب. و كان يحمل موقفا إيجابيا من النساء عكس دعوات عدة أخرى، "إن الشرارة الإلهية موجودة فينا جميعا... إنها ليست ذكرا و لا أنثى" (٥). و قد كان مرافقه الأكثر قربا إليه امرأة هو من طلبها من هرمز ابن الإمبراطور، و وارث العرش بعده، من دون أسباب مباح بها. الإلتباس العاطفي حين يتعلق الأمر بحياة نبي هو أمر مثير. و من بين مناصري ماني كانت هنالك كثرة من النساء، منهن من حرقن مع كتاباته لما رفضن البصق على اسمه. و حين استشهد على الصليب، رحن في بادرة جميلة يقبلن شفتيه تباعا.

٤

رفض ماني أن يكون نبي الإمبراطور و أن تسفك باسمه الدماء و لو مقابل تحول ديانته إلى دين البلاد الرسمي بتبني "ملك الملوك" له.و لم يعط رأيا في الحرب حين كان العاهل يستجدي توأمه السماوي. لكنه سعى دائما إلى التدخل لصالح السلام حتى اصطدم مباشرة بالقصر. وفي الوقت الذي كانت فيه جيوش الإمبراطور تحارب، كان هو ينشر دعوته مناديا بالجمال و السلام. اعتقد دائما أن أمور الأرض ليست ما يعنيه بل الأشياء الأخرى الأبدية و الكاملة. كان يبتعد عن ممارسة السياسة في حين يمارس يدري أو لا يدري تلك السياسة التي يرفضها القصر و التي لم يكن عصره ناضجا لها ماديا. يقول الإمبراطور شاهبور مخاطبا ماني: "إن حبي لك أشد من حبي لولدي أنفسهما. و ما دمت حيا فما من يد ستنال منك، لا يدي و لا أية يد غيرها. و لكن لماذا تصر على الحديث عن إلغاء الطبقات؟" (٦). يدعو ماني إذن للمساواة، و يرفعها إلى مستويات فوق مادية لكن للواقع مرأته التي تعرف جيدا منطق الإنعكاسات. و ما أثار حفيظة الملاكين ميسوري الحال هي المساواة المادية التي كان يصلهم حَرها و هي لا تزال فكرة في مهد. لكن هذه الدعوة لم تكن صدى لتحولات اجتماعية عميقة في واقع الشرق و لا كان لها صوت سياسي ليشكل امتدادا لإرهاصات تحول مفترض، كانت "خالصة".لهذا لم تكتمل. لم تنضج في صهد الحياة. تماما لأنها كانت بالحاجة إلى الكثير من الواقع..فالجمال الذي كان ينشده ماني كان محتاجا إلى محاربين بنفس حاجته إلى حكماء. لكن ماني لم يفكر هكذا. وحتى لو فعل فهل كان سيسعفه ظرفه التاريخي؟ لقد كان ماني بمنطق أمير مكيافيلي، نبيا أعزلا و كل الأنبياء العزل أخفقوا في حين انتصرت دعوات الأنبياء المسلحين.

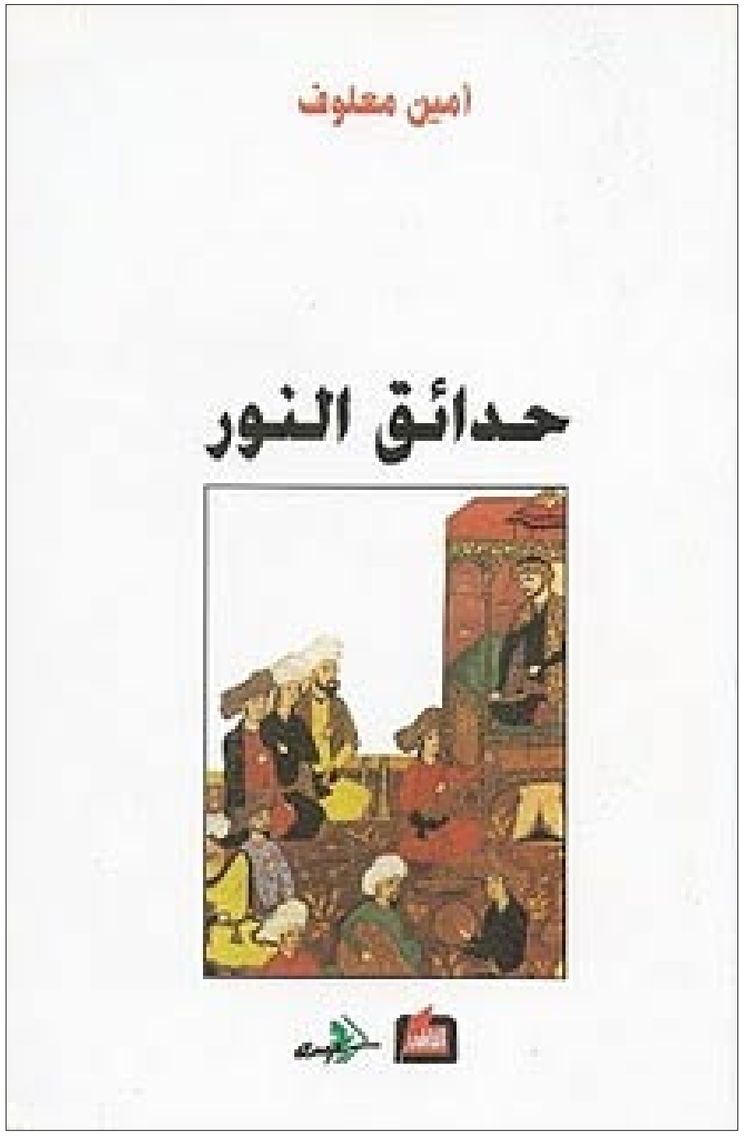

٥

كان ماني نبيا قريبا من الأرض. كان الوحي قريبا منه، يأتيه إلا من توأمه أو صنوه الذي رآه أول مرة على صفحة ماء في بستان النخيل. هل سيكون مجرد حذلقة أن نقول أن وحيه يأتيه من نفسه، كما تجيء المبدع لحظات توهجه و قوته؟ألا نستطيع أن نقول أن لحظات الإبداع عند ماني أو لنقل لحظات الإلهام كانت بالقوة التي جعلته يسمي إلهامه وحيا و يقتنع بذلك. ألم نفترض بداية أنه قد يكون بالأساس فنانا موغلا في العظمة و الإبداعية إلى حد أخطأ طريقه إلى النبوءة؟ ألم تكن قدرته الشخصية تحديدا على استحضار بواطنه و التمكن منها هو ما جعل دعوته تنصب على قوة الإنسان الباطنية؟ المهم هنا هو أنه كان مخلصا لما قاله بشأن "النور".فنبوءته كانت بداخله، تخرج إليه حين تشاء أو حين يحتاجها و تشاء، و كانت هي نوره الوهاج. حين يُسأل ماني ويُطلب منه أن يعطي رأي صنوه السماوي كان يأخذ وقتا -يختلف كل مرة- في انتظار وحيه، و كأنه يُلهَم بالمعنى السالف الذكر. كانت نبوءته الإنسان و كان وحيه منه؛ هو الإنسان. إن انسجاما أثيرا يحكم تاريخ و أفكار ماني.

٦

ابتدأت معاناة ماني مع المتطرفين من خلال تجربة " الناصريين" الذين يكثر ذكرهم في الكتاب باسم "أصحاب الملابس البيضاء".كانوا يعتكفون في بستان نخيل بعيدا عن "المدائن" عاصمة الشرق في ذاك العهد، لا تربطهم بالخارج إلا بعض العلاقات الإقتصادية البدائية المتمثلة في بيع محاصيلهم الزراعية لتوفير العيش في ظل حياة التقشف، معتبرين الناس خارجا كفرة و زناديق، و كان الرهبان الرسميون يبادلونهم التهم ذاتها. قضى ماني في هذا البستان سنين طفولته و مراهقته، قارئا نهما لما يسمح بقراءته، متأملا عميقا لنفسه و ما حوله.حتى جاءه "الوحي" في بدايات شبابه.و ظل ينتظر إذن "توأمه السماوي" ليعلن نبذه لملة أصحاب الملابس البيضاء بالتخلص من ثوبه القديم الأبيض و استبداله بلباس مختلف رسم عليه زهورا ملونة.و خرج من البستان محملا بلعنات رفاقه القدامى.

التجربة الثانية هي مع رهبانة القيصر الذين استقبلوا كلام ماني منذ بداية دعوته بالتهم نفسها التي حُمِّلها و هو يخطو أولى خطواته خارج البستان. لكن ماني لم يكن يتبادل التهم مع أحد لأنه يحاور "نور" الناس و ليس "ظلماتهم".

٧

"حدائق النور" لأمين معلوف سيرة و رواية و بيان حقيقة أيضا. جمعٌ لما تبقى من حياة نبي لم يعد يُذكر إلا نموذجا لثنائية ظلت غير مفهومة إلا بشكل ساذج:النور/ الظلمات. ماني الطبيب و النبي و الرسام و الإنسان يسكن في ظلال الوهج هادئا و متزنا. شأن المسيح و الحلاج و غيفارا و كل الذين دفعوا حياتهم ثمنا لثراء الإنسان الروحي.

هوامش

"حدائق النور" تأليف أمين معلوف، ترجمة د.عفيفي دمشقية،دار الفارابي بيروت ١٩٩٣ (١)
ص١٧٩
(٢) المرجع نفسه.ص٢٥٤
(٣) المرجع نفسه.ص١٥٧
(٤) المرجع نفسه.ص١٧٠
(٥) المرجع نفسه.ص١٧٩
(٦) المرجع نفسه.ص١٩٧
٩٤ المرجع نفسه.ص

عن الحوار المتمدن

صخرة طانيوس لأمين معلوف:

الرواية للحديث عن تأسيس وطن

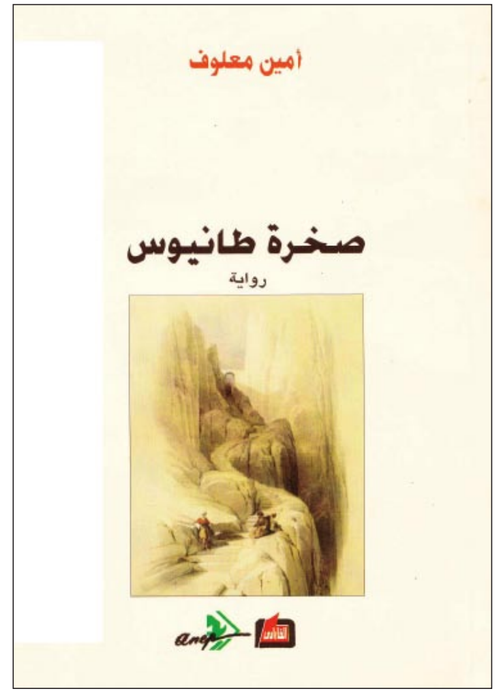

إبراهيم العريس

لم يكن الكاتب اللبناني في اللغة الفرنسية، أمين معلوف، في حاجة لأن ينضم الى «مجمع الخالدين»، اي الى الأكاديمية الفرنسية، حتى يعود ليشغل واجهة الأحداث الثقافية في لبنان، وطنه الأصلي، كما في فرنسا، وطنه اللغوي ودياره بالتبني. ذلك ببساطة لأن كل عمل يصدر او يترجم لهذا المبدع يشكل حدثاً كبيراً. وليس على الصعيد الأدبي وحده. ومع هذا لا شك في ان انضمام امين معلوف – كثاني مبدع عربي بعد الجزائرية أسيا جبار – الى أعلى سلطة أدبية في العالم الفرنكوفوني يشكل حدثاً استثنائيا في مسيرته الخاصة وأيضاً في العلاقات الثقافية بين العرب والفرنسيين. ولعل من الأمور ذات الدلالة القصوى في هذا السياق ان معلوف يحل في الأكاديمية في مقعد عالم الأناسة الكبير الراحل كلود – ليفي ستراوس الذي كان التلاقح الحضاري والتقارب بين الشعوب همّه ومجال عمله الرئيس. ونعرف في هذا السياق ان هذا كان ولا يزال الشغل الشاغل لأدب امين معلوف سواء أجاء على شكل دراسات تاريخية وبيانات انسانية («الحروب الصليبية من منظور عربي» و «الهويات القاتلة») ام على شكل تاريخ مكتوب بإبداع روائي («سمرقند» و «ليون الأفريقي» ام «بلداسار») ام على شكل روائي ينهل حقاً من التاريخ («صخرة طانيوس») ام تحقيق حول جذوره العائلية كما في كتابه «جذور». وهنا للمناسبة نتوقف عند رواية « صخرة طانيوس» التي شكّلت منذ صدورها عام ١٩٩٣ علامة فارقة في مسيرة هذا الكاتب وجعلته يومها ثاني كاتب عربي يفوز بجائزة «الغونكور» وهي الأرفع في فرنسا، بعد المغربي الطاهر بن جلون.

في «صخرة طانيوس» يلجأ امين معلوف الى اسلوبه المعهود في تضافر الأزمان، وتقديم الاحداث عبر وجهة نظر سلسلة من الرواة. وهو هذه المرة ايضاً يغرف من التاريخ، ويصل الى تاريخ لبنان بعد أن جال في كتبه الأولى على تواريخ عوالم الشرق والغرب القديمة، فرافق «ليون» من غرناطة الى روما مروراً بمصر وأفريقيا كلها، وتجول في اواسط آسيا مع عمر الخيام و «الحشاشين» ونظام الملك، وتوغل في ادغال العصور القديمة وحضارة ما بين النهرين في «حدائق النور»، وطار الى المستقبل البعيد مع «بياتريس». كل هذه الجولة قادته هكذا من دون ان يعرف احد الى اين ذهب، وتبقى منه حكايته التي يتناقلها اهل الضيعة، ولكن تبقى منه صخرة تحمل اسمه حتى اليوم. صخرة جلس امين معلوف عليها ذات يوم يتأمل البحر الواسع، وقرر ان يكتب رواية جديدة، هو الذي اعتاد منذ نحو عشرة اعوام على اصدار رواية جديدة كل عامين.

بالنسبة الى امين معلوف، يصعب عليه، حتى في هذه الرواية الحكواتية الخالصة، ان ينتزع من الهموم السياسية والحضارية التي تشغل باله. فهو يرى، على الارجح، ان الاطار الفني ليس في نهاية الامر الا وسيلة لإيصال الرسالة. انها رسالة التعايش والتسامح، اللذين يفتقر اليهما شرقنا، وربما العالم اجمع. ومن هنا يحلو لمعلوف – حين يسأل من أين اتت هذه الرواية؟ – ان يقول: «اعتقد من رغبتي في كتابة شيء عن لبنان، عن جو لبنان، وهي رغبة تساورني منذ زمن بعيد. بعد خمسة كتب لم اتعرض في اي منها مباشرة للمسألة اللبنانية، اتصور ان رغبة حارّة تملكتني، في شكل او في آخر. الحقيقة انني ترددت كثيراً قبل ان اختار المرحلة التي سأتحدث عنها، والشخصيات التي ستملأ الرواية. وفي نهاية الامر وجدت نفسي اعود الى مناخ القرية، المناخ الذي حدثت عنه كثيراً، من اشخاص كثيرين. وحسمت أمري اخيراً فاتخذت كنقطة انطلاق، حادثة حقيقية وقعت في محيط عائلتنا... تقريباً».

وحبكة الرواية عبارة عن جريمة قتل حدثت اوائل القرن التاسع عشر، في قرية وهمية تدعى كفربيدا. والحقيقة ان المكان الذي تمت فيه الجريمة، تاريخيا، يقع بين كفرعقاب والمشرعة في منطقة المتن، قرب بسكنتا – صنين. وهو مكان يعرفه معلوف جيداً ويقع بعد وادي الجماجم. بالحاجة الى معرفة مسبقة لما سيحل مكان العالم القديم. ليس من المعقول ان نعذب وندمر ثلاثة او اربعة اجيال، ثم نكتشف في نهاية الامر، ان ما جعلناه محل القديم، لم يكن احسن منه في أي حال من الاحوال. بعد كل ما حدث في لبنان، وبعد كل ما حدث في العالم، صار يخامرني الشعور بأننا ربما كنا دائما بحاجة الى ازالة العالم القديم، ولكن شرط ان نضع مكانه ما هو افضل، فالمهم ان نتقدم الى الأمام، لا ان نحطم ما هو قائم وحسب».

حين صدرت «صخرة طانيوس» شكلت حدثاً كبيراً... ومع ذلك توقع كثر لها ان تُنسى بعد حين كما يحدث لمعظم ما يصدر في ايامنا هذه من اعمال ادبية، لكن الرواية قاومت النسيان كما ترجمت الى الكثير من اللغات وها هي اليوم حية وملء الأسماع كما كانت عليها الذي يصعب مع هذا القول انه تجاوزها كثيراً في عالم الإبداع الروائي، حتى وإن كان لا يزال مواظباً على الكتابة في شكل جعله اليوم واحداً من الأربعين «الخالدين» في الثقافة الفرنسية من دون ان يبرح لبنانيته او عروبته قيد انملة.

عن جريدة الحياة

التحدي هـو أن تقبل الآخر لا أن تلغيه

أمين معلوف

الهويات القاتلة

«قراءات في الانتماء والعولمة»

ترجمة: د. نبيل محسن

sonofalgeria.blogspot.com

خالد غزال

يجري وصف العقود الثلاثة الماضية بأنها عصر انبعاث الهويات الدينية والعرقية والاثنية في العالم اجمع، سواء أكان متقدما ام متخلفا، بصرف النظر عن حدة هذا الانبعاث هنا او هناك. يترجم هذا الفوران للهوية بصراعات تتخذ لها طابعا دينيا او حروبا اهلية او في ما بات يطلق عليه "صراع الحضارات"، وتتخذ هذه الصراعات في الغالب طابعا عنفيا يمكن تلمّسها بوضوح في كل مكان. يشكل عنف الهويات المتصارعة همّا فعليا ويهدد العلاقة داخل المجتمعات نفسها او في علاقتها بعضها بالبعض. وقد ازدهر ادب سياسي غير قليل، عكف على تحليل الظاهرة وتقديم اقتراحات ومشاريع حلول لتجاوزها، فكان كتاب امين معلوف "الهويات القاتلة" الصادرة ترجمته العربية لدى "دار النهار"، احدى المساهمات الجادة في قراءة الظاهرة وتشخيص عوامل صعودها والتأشير الى أخطار انفلاتها وهيجانها.

يشير معلوف الى ان "مفهوم الهوية القاتلة هو الذي يختزل الهوية الى انتماء واحد، يصنف الناس داخل موقف منحاز، متشيّع، غير متسامح، تسلطي وانتحاري ايضا، فيحولهم في غالب الاحيان قتلة او انصارا للقتلة، وتكون رؤيتهم للعالم منحرفة وملتوية". يعاكس هذا المفهوم كون البشرية في الاصل تتكون من حالات خاصة ومتعددة بحيث يستحيل ان تكون فيها للفرد هوية واحدة. يؤشر ذلك الى ضرورة فهم هويتنا بوصفها مجموعة انتماءات، بعضها يرتبط بتاريخ عرقي او اثني، وبعضها بتاريخ ديني، وبعضها يرى هويته في الشعر او الفن او العلم.

يعد معلوف ان الهويات الدينية تمثل هويات خطرة وعنفية، لكونها توظف الدين في أطروحاتها، وتضفي على مقولاتها طابع القداسة، مما يشرّع لها استخدام العنف ورفض الآخر والقبول باضطهاده. تناقش الاصوليات الدينية جوهر الدين، الذي هو في طبيعته مجموعة من القيم الروحية والانسانية والاخلاقية، ولم يكن يوما في حقيقته سلطة سياسية. لكن الكنيسة في الزمن المسيحي القديم استولت على الدين ووظفته في تسويغ سلطتها الزمنية وهيمنتها على المجتمعات. لم تكن الحروب الدينية يوما نتيجة خلافات لاهوتية او عقائدية، قدر ما كانت نتيجة الصراع للهيمنة على المقدس وتوظيفه في مصالح سلطوية. دفعت الشعوب المسيحية مئات الآلاف من الضحايا نتيجة تحويل الدين هوية سياسية، ودفعت شعوب اخرى دماء سفكت بسبب رفض المسيحية الاعتراف بالاخرين وحقهم في الحياة. لم يكن الامر أفضل في الجانب الاسلامي الذي انبعثت اصولياته منذ الزمن الاسلامي الاول الذي شهد صراعا على المقدس وعلى السيطرة على الذرى العليا للدين، فتحول الصراع "فتنة" بين المسلمين ومدهش للشيخ فرنسيس، شيخ الضيعة، اذ يصوّر بملامح الأب، الحنون والقاسي في آن، الذي يستقل رعاياه/ابناءه ويحميهم، يذلهم ويدافع عن كرامتهم. وهذه الصورة للأب التي تستغرق صفحات من «صخرة طانيوس»، تدفع المرء الى الخوض في رؤية الكاتب لدور الأب وموقعه في مجتمعنا بخاصة انه كمؤرخ وكصحافي يعتبر مراقباً دقيقاً للحياة الاجتماعية في لبنان والعالم العربي.

بالنسبة الى الرواية من الواضح ان صورة الأب هذه، هي صورة الماضي. وفي هذه النقطة بالذات كان واضحاً همّ الكاتب التعبير عن امر مهم: هم الصورة التي ترتبط بحنيننا الى الماضي، الحنين الممتزج ببعض التحفظ. وهو يقول عن هذا: «لدي حنين معين للماضي على علاّته. وربما لو كان عليّ ان اوجز ما يعنيه هذا الشيخ/ الأب بالنسبة اليّ، سأقول انه يرمز الى علل الماضي». انه، بكلمات اخرى «كاريكاتور» المجتمع التقليدي، حسنات وسيئات المجتمع التقليدي في آن. هذا المجتمع الذي يدخل عليه العالم الحديث في شكل مباغت. فينتج من هذا ان المجتمع يدخل في دوامة فيها صراعات ودم، ولا يعرف كيف سيخرج منها.

مهما يكن من أمر هنا لا بد من ان نأخذ في اعتبارنا ما يؤكده لنا الكاتب حين يشير الى انه «لئن كان في روايتي، بهذا المعنى، رسالة معينة، فلا اعتقد ان هذه الرسالة تتلخص في اعادة ذلك الاب بحسناته وسيئاته، ولكن بالتفكير الدقيق في ما حل بعده. انه لأمر مشروع بالطبع ان تكون هناك رغبة في استرداد العالم القديم. وأنا شخصياً – ضمن اطار اتجاهي الطبيعي – احب أن أغيّر العالم القديم، ولكن، في الوقت نفسه، أشعر

يجد معلوف الى ان الحادثة نفسها لم تقع في التاريخ الوارد في الرواية، بل قبل ذلك بسنوات عدة. الحادثة (الجريمة) وقعت سنة ١٨١٢. لكنها في الرواية تقع في عام ١٨٣٨. هناك ربع قرن يفرق بينهما. اما الفارق في الازمنة فيعود – في تأكيد الكاتب – لأسباب تتعلق برغبته في موضعة القصة في اطار الجو العام الذي ساد لبنان والمنطقة في أربعينات القرن التاسع عشر وحولها... وذلك للوصول الى معان معينة تتعلق بتاريخ البلد. ففي ذلك الزمن بدأت الصراعات الكبرى المتعلقة بلبنان. وكان معلوف راغباً في التحدث عن تلك الصراعات وعما قبلها.

في «صخرة طانيوس» التي رأى فيها الكثير من النقاد استعادة لحكاية دخول لبنان العصر الحديث، يقدم لنا معلوف عرضاً للوضع السياسي المحيط بلبنان، بدءاً من القرية وحاكمها المطلق الشيخ فرنسيس، وصولاً الى الباب العالي وصراعات الدول العظمى... وتبدأ الرواية بوصف دقيق في نهاية الامر الى قرية صغيرة في الجبل اللبناني... لكنها قادته ايضاً الى عمله الأكثر روائية.

رواية معلوف هذه تذكر بملامح من عالم الالبناني اسماعيل كاداري وأسلوبه في تضافر الاحداث. انها تنتمي مباشرة الى تلك الروايات الشرقية والاميركية اللاتينية التي ازدهرت في العقود الاخيرة وجعلت الانسان وتاريخه محوراً لها، في وقت بدا فيه الادب الاوروبي قد فقد روحه وشيئاً كل شيء في العقود الاخيرة. فهنا من خلال وصف بسيط هادئ، عرف امين معلوف كيف يرسم سلسلة من الاحداث المتعاقبة، وكيف يرسم ملامح ابطال تلك الاحداث ووجوههم، على خلفية ولادة لبنان قبل قرن ونصف قرن من الزمن، يوم كان هذا البلد الصغير يعيش في افق الحكم العثماني ويحاول المصريون استيعابه، وسط صراعات الانكليز والفرنسيين والروس على ارضه. على هذه الخلفية، يفصّل امين معلوف مصائر شخصياته القروية ذات السمات الساذجة والطيبة، من الشيخ فرنسيس، الاقطاعي/الأب/الطاغية، الى بولس الى جريس الى جبرائيل، وبخاصة الى لميا، تلك الجميلة التي تلد صغيرها طانيوس من دون ان يعرف احد ما اذا كان الابن الشرعي لجريس، او الابن غير الشرعي للإقطاعي الشيخ فرنسيس. والحال ان ولادة طانيوس نفسها هي التي ستشعل المآسي المتعاقبة، المتفصلة مع مآسي لبنان الذي وجد نفسه فجأة ومن دون اي استعداد، يعيش دوامة الصراعات الكبرى. وفي نهاية روايته، يجعل امين معلوف بطله طانيوس يختفي وحروبا اهلية وانقساما الى فرق دينية متناحرة ترى كل واحدة منها انها "الفرقة الناجية" فيما سائر الفرق مصيرها "جهنم وبئس المصير". وترتبت على ذلك عصبوية ترفض المسلم المختلف، وتسعّر العداء ضد غير المسلم وتسمح باضطهاده وقتله.

واذا كانت الاصوليات المسيحية قد دفعت الاثمان الغالية مبكرا لصعودها وهيمنتها، بحيث امكن المجتمعات الغربية ان تتجاوز هذه الاصوليات وتضعها على الرف، وتحل مكانها قيما تعترف بالآخر وتقبل مشاركته، وتكرس حقوق الانسان المتساوية، فإن المجتمعات الاسلامية لا تزال في بداية الطريق في مواجهة مترتبات صعود الاصوليات فيها، بل ان هذه الاصوليات تخترق هذه المجتمعات بقوة وتكاد تهيمن على ثقافتها وتحدد لدولها وجهة الممارسة. تتحمل هذه الاصوليات مسؤولية في الحروب الاهلية المندلعة في داخلها، وفي نقل عنفها الى الخارج والى داخل المجتمعات المتقدمة نفسها، وهو أمر بدأ يستثير مجددا انبعاث هوية دينية مسيحية كانت قد زالت من الوجود الى حد كبير.

يشدد امين معلوف على التطور الحضاري الذي شهده العالم في مختلف الميادين، وهو التطور الذي يشار اليه بتعبير "العولمة" التي باتت تخترق جميع مناحي الحياة الانسانية، الخاصة منها والعامة، فتؤثر في القيم والعادات والسلوكيات، وتخترق الثقافات وخصوصيات المجتمعات. يشير باحثون من منابت متعددة الى ما يتركه اختراق العولمة للمجتمعات من اثر في انبعاث الهويات دفاعا عن الخصوصيات. "فالعولمة المتسارعة تثير كرد فعل حاجة متصاعدة الى الهوية، كما ان القلق الوجودي المرافق لهذه التغيرات المفاجئة يخلق حاجة روحانية متزايدة. فيبرز الانتماء الديني وجده قادرا او محاولا تقديم اجوبة عن هاتين الحاجتين"، على ما يشير امين معلوف في كتابه، لكن العولمة تحوي في جوفها من الايجابيات ما تحويه من سلبيات ايضا، فالتطورات المجتمعية الحالية الناجمة عن العولمة والتي قربت المسافات بين الشعوب وجعلت العالم "قرية صغيرة"، يمكنها ان تساعد في تقديم اجوبة ومقاربات لقضية الهوية تؤدي الى مزيد من الالتقاء بين المجموعات المختلفة، بخلاف ما هو متصور من ان العولمة ستشحن الهويات بمزيد من الافتراق والتباعد بين اصحابها. واذا كانت العولمة تهدد فعلا التنوع الثقافي وخصوصا تنوع اللغات ونمط الحياة والسلوك الساذيين، الا انها في المقابل توفر الكثير من وسائل الدفاع عن هذه الخصوصيات نفسها والمحافظة على الثقافة المهددة، وذلك من خلال الاستفادة مما تقدمه الثورة التكنولوجية ووسائل الاتصال الحديثة، كما تسهم ايضا في تكوين ثقافات مشتركة بين شعوب متعددة وبعيدة المسافات عن بعضها.

في عالم متعدد البعد والحضارة والثقافة والقيمة، وفي مجتمعات غربية باتت تضم اعدادا هائلة من المهاجرين الآتين من هويات مختلفة عن البلد المستقبل لهم، وثقافات لا تحمل الكثير من القواسم المشتركة، وفي بلدان يشهد فيها الدين الموظف في السياسة انبعاثا وفوارا واستعدادا لمحاربة الاخر المختلف معه، في هذا العالم الذي تتزايد فيه الاضطرابات الناجمة عن تناقضات الهويات، يُطرَح على جميع الشعوب تحدّي قبول بعضها البعض، وعلى المجتمعات الداخلية تحدّي العيش المشترك بين جميع الفئات مع قبول الاختلاف في ما بينها.

النهـــار..

manarat

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كرم

التحرير
نزار عبد الستار

الاخراج الفني
مصطفى التميمي

التصحيح اللغوي
محمد حنون

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

Amin Maalouf
Les croisades vues par les Arabes
La barbarie chrétienne en Terre sainte
أمين معلوف
سمرقند
رواية
أمين معلوف
اختلال العالم
أمين معلوف
الحروب الصليبية
كما رآها العرب
أمين معلوف
بدايات
Leo Africanus
Amin Maalouf
أمين معلوف
الأم أدريانا
أمين معلوف
الحب عن بعد
أمين معلوف
سلالم الشرق
روايـة
أمين معلوف
القرن الأول بعد بياتريس
رواية